شكرا لمن رفع الكتاب على الشبكة، فمنا بتنسيق الكتاب وتخفيض حجمه
مكتبة فلسطين للكتب المصورة

الجمهورية العربية المتحدة
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة إحياء التراث الإسلامي

المنازل والديار

تأليف

أسامة بن منقذ
٤٨٨ – ٥٨٤ هـ

بتحقيق

الأستاذ مصطفى حجازي

القاهرة
١٣٨٧ هـ – ١٩٦٨ م

الجمهورية العربية المتحدة
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة إحياء التراث الإسلامي

المنازل والديار

تأليف

أسامة بن منقذ
٤٨٨ - ٥٨٤ هـ

بتحقيق

الأستاذ مصطفى حجازي

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

الكتاب
الخامس عشر

القاهرة
١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تصـدير
بقلم الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم
رئيس لجنة احياء التراث

زخر تاريخ الاسلام بسِيَر أبطال الحروب وفرسـان الميـادين ، ممَّن حملوا راية الجهاد ، وفتحوا البلاد ، وقـوَّضوا العروش ، ومكَّنوا للملَّة الحنيفيَّة فى مشارق الأرض ومغاربها ؛ كما حفل هذا التاريخ أيضا بأخبـارقادة الفكر ورُوَّاد المعرفة ، وأعيـان العلماء والحكماء والشعراء وملوك البيان . وبجانب هؤلاء فريق ممَّن جمع بين السيف والقلم ، وتهيأ له شهود الوقائع وخوض المعامع . والمشاركة فى العلوم والفنون والآداب .

وكان من هذا الفريق « أسامة بن منقذ الكنانى » ، سليـل الأسرة العربية الأصيلة التى أقامت مُلكَها فى أطراف حلب فى القرن السادس ، وعاشت تاريخها بين غزو جهاد ، وفروسية ونضال .

ولد فى شيزر ، ونشأ بين الفرسان الأنجاب من بنى منقذ ، وترامت اليه منذ حداثتـه أخبـار الحروب الصليبيـة فى بلاد الشـام ، وثقف العـلوم والآداب ، وحفظ القرآن وتدارسه ، وسمع الحديث ورواه ، ووهبه الله ذهنـا صافيا ، وذكاء نادرا ، وعقلا خصـيبا فقال الشعر ، وصاغ القريض ، ونفح طبعه بأجمل المقطعات ، وأروع القصيد .

ثم حمل راية الجهاد ، والتقى مع الروم فى كثير من المواقع والأيام ، فكان صليبَ النَّبْع ، صادق البأس ، مشيَّع القلب ، جرىء المقدم ، خرج منها كلِّها مظفرا منصورا ، كما كان له رحلات بين مصر والشام ، ولقاء مع الملوك والعلماء والأدباء ، وغرام باقتناء الكتب والأسفار ؛ فأفاد من كل ذلك تجربة واختبارا ، وحمل علما وافرا غزيرا .

وبارك الله فى عمره ، وفسَح له فى أجله ، الى أن أرعشه الكبر عن حمل السيف ، وقيَّده الهرم عن الرحلة والسفر ، فأخلد الى الراحـة والاطمئنـان ، وعاوده الحنين الى الشعر فأودعه نبضات قلبه ، وخلجات فؤاده ، وخلاصة تجاربه ، والى العلوم والآداب ، فصنَّف الكتب وأودعهـا مخزون معارفه ، وثمرة قراءته واطلاعه ؛ وكان من هذه المصنفات

« كتاب المنازل والديار » . وهو الكتاب الذى عنيت لجنة احياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الاسلامية بتحقيقه ونشره ، أودعه طائفة مما صدر عن الشعراء فى ذكر معاهد الحداثة وملاعب الصبا ، والبكاء على من سكن الديار من الأهل والأحباب ، والتلدات والأقران ، ألّفه عزاء لنفسه ، وتأساء لقلبه ،حين عاد الى بلده بعد رحلة بعيدة فوجدها رسوما عافية ، وأطلالا بالية ، ومنازل خاوية ، بعد زلزال مروّع أليم .

وفيما اختاره أسامة من هذا الشعر ، فوق ما فيه من متعة للقلب ، ونزهة للوجدان والخاطر — أبيات مما يستشهد بها فى اللغةويقوم بها الاحتجاج ، ممّا لم يرد فى كتاب ، وطائفة من شعره وشعر أسرته مما يجرى فيه ماء الفصاحة ، ويتفجر عن الأنفة والحميّة والحفاظ ، كل هذا فى لفظ عفّ كريم ، وأسلوب علوىّ شريف ، أملاه من محفوظه ، وما كان أودعه سرائر نفسه .

وقد ظل هذا الكتاب قابعا فى زوايا النسيان ، بعيدا عن أعين العلماء والمتأدبين ، الى أن عثر عليه فى خزانة «المتحف الأسيوىّ بلينينجراد» . وقام هذا المعهد بنشره بطريق التصوير مع نقص فى بعض صفحاته ، ثم قام المكتب الاسلامى بدمشق فأعاد نشره عن هذه الطبعة ، ومع هذا فقد ظلت هاتان الطبعتان ، على ما بهما ، غير ميسّرتين لكثير من قراء العربية لنشرهما فى نطاق ضيق محدود .

ثم جاء الأستاذ مصطفى حجازى — مراقب المعجمات واحياء التراث بمجمع اللغة العربية — فقام بتحقيقه على منهج علمىّ دقيق ، وردّ ما نقص منه ووضعه فى موضعه ، ونسب الشعر — ما استطاع — الى قائله ، وشرح غريبه ، ووشاه بالحواشى الرائعة ، والتحقيقات العلمية النافعة ، وأورد فى صدره دراسة واعية للكتاب ، وسيرة ضافية لأسامة ابن منقذ جلت تاريخه المشرق ، وحياته فى جهاده وحروبه ، كأروع مثل للقائد المسلم العربىّ الشجاع الأصيل .

والأستاذ مصطفى حجازى من الصفوة الكريمة التى تمرّست بالبحث والتحقيق ، وعُرفت بالاطّلاع ووفرة المحصول . قام بتحقيق كتاب « بهجة الزمن فى تاريخ اليمن » لعبد الباقى بن عبد المجيد اليمانى ، والجزء الحادى والثلاثين من كتاب « نهاية الأرب » للنويرى ، كما شارك فى تحقيق« تاج العروس شرح القاموس المحيط » فحقق الجزأين الخامس والثانى عشر منه ، وله غيرهذا من الجهود الموفقة المشكورة .

وبعد ، فهذا الكتاب ، بنسبته الى بطل من أبطال الاسلام الكرام ، فى موضوع طريف يأخذ بمجامع اللبّ والفؤاد ، وبهذا التحقيق الموفّق ان شاء الله جدير بأن يوضع فى المكتبة العربية فى أعز مكان .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ،
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

فهذا كتاب «المنازل والديار» ألّفه أسامةُ بن مُنْقِذ (٤٨٨ - ٥٨٤هـ) ، وعده ناشرو مؤلفاته الأُخرى بين كتبه[١] ، وأجمعوا على أن نسخته الوحيدة محفوظة بالمتحف الآسيوى بلينينجراد ، كما تذكر دائرة المعارف الإسلامية ، وبروكلمان فى تاريخ الأدب العربى ، وربما كان المصدر الأول لما ذكره هولاء عن الكتاب هو المقال الذى نشره المستعرب الروسى كراتشكوفيسكى فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق سنة ١٩٢٥ م[٢] ، وهو جدير بأن يوثق بكلامه فى ذلك ؛ لأنه كان أمينا للمخطوطات بالمتحف الآسيوى الذى يضم الكتاب بين مقتنياته . وبقى قراءُ العربية لا يعرفون شيئا عن الكتاب غير ما ذكره هؤلاء ، حتى أُتيح لمعهد الشعوب الآسيوية بموسكو نشره سنة ١٩٦١ بطريقة تصوير المخطوط كما هو ، مع مقدمة له باللغة الروسية كتبها المستعرب الروسى الأستاذ «أنس خالدوف» ووضع فهارس للأعلام والقوافى والمواضع والكتب التى وردت فى ثناياه ، ونشْر الكتاب بهذه الطريقة لا يعنى أكثر من توفير عدد كبير من المصوَّرات للمخطوط الأصلى ، وتيسير الحصول عليها لمن شاء ، ومنذ حصلت على نسخته فى أوائل سنة ١٩٦٢ أحسست أن الكتاب جدير بالعناية ، وبإعادة نشره محقّقا وفق مناهج التحقيق الحديثة التى اتضحت على أيدى رواد أفاضل من أساتذتنا الأجلاّء .

---

(١) انظر ديوان أسامة بن منقذ /٨ ولباب الآداب/٢٦ ومقدمة الاعتبار/ك والحاشية رقم ٢٩ من الصفحة نفسها .

(٢) مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق (تموز ١٩٢٥) ص ٣٣٥ .

وخشيت فى أول الأمر أن يطول انتظار القراء له إذا انفردت بالعمل وحدى ، فرغبت إلى صديق فاضل هو الأستاذ عبد العليم الطحاوى أن يشركنى فى تحقيقه ، حتى أعجّل ظهور الكتاب ، وليكون هذا العمل تأكيداً للصداقة التى أعتز بها ، ولكنه آثر أن أستقل به وحدى ، وبقى يرقب خطواتى حافزا لى على العمل كلما فترت الهمة ، مثنيا على ما يتقدر لى من توفيق فى بعض المسائل ، وتركنى أخيرا مدينا له بالشكر على امتنجازه إياى هذا الجهد الذى أرجو أن تحمد عقباه .

* * *

والآن : وقد فرغت من تحقيق الكتاب ، وبذلت فيه ما استطعت من جهد ، أرى من الضرورى أن أبسط بين يديه مقدمة أضمنها المسائل الآتية :

١ ـ كتاب المنازل والديار وأهميته الأدبية .

٢ ـ منهج المؤلف فيه .

٣ ـ توثيق نسبة الكتاب إلى مؤلفه .

٤ ـ وصف نسخة الكتاب .

٥ ـ منهج التحقيق .

٦ ـ الترجمة لحياة المؤلف وتشمل النقاط الآتية : (ا) شيزر (ب) نسب أسامة (ج) أسرته (د) مولده ونشأته (هـ) حياته الحربية (و) حياته العلمية (ز) مؤلفاته (ح) ثناء العلماء عليه (ط) أسامة فى شيخوخته (ى) وفاته .

٧ ـ ترجمة للمقدمة التى كتبها بالروسية المستعرب الأستاذ « أنس خالدون » الذى أشرف على نشرة موسكو المصورة للكتاب .

١ ـ كتاب المنازل والديار وأهميته الأدبية

يقول المؤلف في المقدمة : « وبعد ... فإني دعاني إلي جمع هذا الكتاب ، ما نال بلادى وأوطانى من الخراب ، فإن الزمان جر عليها ذيله ، وصرف إلي تعفيتها حَوْله وحيْله ، فأصبحت كأن لم تَغْنَ بالأمْس ، موحِشة العَرَصات بعد الأُنس ... ولقد وقفت عليها بعد ما أصابها من الزلازل ما أصابها ـ وهى أول أرض مس جلدي ترابها ـ فما عرفت دارى ، ولا دور إخوتي ، ولا دور أعمامى وبنى عمى وأسرتى ، فبهت متحيرا مستعيذا بالله من عظيم بلائه ، وانتزاع ما خَوَّله من نعمائه ... وما اقتصرت حوادث الزمان ، على خراب الديار دون هلاك السُّكّان ، بل كان هلاكهم أجمع ، كارتداد الطرف أو أسرع . فاسترحت إلي جمع هذا الكتاب ، وجعلته بكاءً للديار والأحباب ، وذلك لا يفيد ولا يجدى ، ولكنه مبلغ جهدي ... »

هذه المقتطفات من مقدمة المولف تلخص لنا موضوع الكتاب والباعث له على تأليفه ، وهو هذا الزلزال الهائل الذى نُكِب به الجزء الشمالى من سورية فى سنة ٥٥٢ هـ فدمر فيما دمر قلعة شيزر قاعدة ملك بنى منقذ ، وأميرها ـ يومَذاك ـ ابن عمٍّ لأُسامة بن منقذ هو تاج الدولة محمد ابن سلطان[١] .

وتذكر المراجع التاريخية أن تاج الدولة هذا كان قد أولم فى ذلك اليوم المشئوم وليمة ، دعا إليها جميع أُسرته ، ليشهدوا ختان أحد أولاده ، وفي أثنائها وقع الزلزال ، فقضى عليهم جميعا ، ولم ينج منهم إلا زوج تاج الدولة وحدها .

وكان أُسامة حينذاك بعيدا عن « شيزر » فسلم من الموت ، ولكنه لم يسلم من الأسى والحسرة اللذين اعقبتهما هذه الفاجعة التى أودت بأُسرته ، وتركَت فى نفسه أثرا عميقا لا تعكسه لنا هذه المقدمة وحدها ، بل نحسه فى الكتاب كله ، إذ حشد فيه أسامة أحزان من سبقوه من الشعراء

---

(١) أورد سبط ابن الجوزى فى (مرآة الزمان ج ٨ ق ١/٢٢٨ و ٢٢٩) خبر هذا الزلزال فى حوادث سنة ٥٥٢ هـ فذكر أنه « هدم حلب ، وحماة ، وشيزر ، وأفامية ، وكفرطاب ، والمعرة ، وحمص ، وأنطاكية ، وطرابلس ، ودمشق أيضا ، وهلك فيه خلق عظيـــم ، حتى روى أن معلما بحماة كان فى كتاب له ، فقام من الكتاب يقضى حاجته ، ثم عاد وقد وقع المكتب على الصبيان ، فماتوا بأسرهم ، وأعجب من هذا أنه لم يأت أحد يسأل عن صبى كان له فى المكتب ، ووقعت أبراج القـلاع وغيـــرها .. وهلك جميـع من فى شيزر فلم ينج من أهلها الا امرآة واحـــدة وخادم » .

الذين بكوا ديارهم وأطلالها ، ومنازلهم ورسومها ، ومعاهدهم وعرصاتها ، وربوعهم وأثافيها ودمنها ... ، وجعل أشعارهم في كل ذلك مسلاة لنفسه المكلومة ، وقلبه الجريح .

وإننا لنجد صدى هذه المأساة ووقعها فى نفس أسامة فى مواضع كثيرة من شعره ، نذكر من ذلك قوله في أهله من قصيدة(١) طويلة :

وفاجَأَتْهُمْ مِنَ الأَيَّامِ قارعَةٌ ... سَقتْهُمُ بكُئُوس الموتِ ذَيْفانا(٢)
أعزِزْ عليَّ بهم من مَعْشَرٍ صُبُرٍ ... «عندَ الحَفيظةِ إنْ ذُو لُوثةٍ لانا(٣)»
لمْ يَتْرُكِ الدّهرُ لى مِنْ بَعْدِ فَقْدِهِمِ ... قَلْباً أُجَشِّمُه صَبْراً وسُلْوانَا
فلَوْ رَأَوْنى لقَالُوا : ماتَ أَسْعَدُنا ... وعاشَ للهَمِّ والأَحْزانِ أشْقانا
لم يَتْرُكِ الموتُ منهُمْ مِنْ يُخَبِّرُنى ... عَنْهُم ، فُيوضِح ما لاقوهُ تِبْيانا
بادُوا جَميعاً ، وما شَادُوا ، فواعَجَباً ... للخَطْبِ ، أَهْلَك عُمّاراً ، وعُمْرانَا
هذِى قُصُورُهمُ أمستْ قُبُورَهم ... كذاكَ كانُوا بها من قَبْلُ سُكّانا
وَيْحَ الزَّلازِلِ أَفْنَتْ مَعْشَرِى فإذَا ... ذَكَرْتُهُمْ خِلْتُنى فِى القَوْمِ سَكْرانَا
بَنِى أَبِى إنْ تَبِيدُوا ـ أَنْ عدا زمَنٌ ... عَلَيْكُمُ دُونَ هَذَا الخَلْقِ عُدْوانا ـ
فلَنْ يَبِيدَ جَوَى قَلْبِي ولا كَمَدِى ... عَلَيْكُمُ أَو يُبِيدَ الدّهرُ ثَهْلانَا
أَفْسَدْتُمُ عُمْرِيَ الباقِى عَلَيَّ فَمَا ... أنْفَكُّ فيهِ كَئِيبَ القَلْبِ وَلهانَا...

وكأن أسامة لم يكفه هذا الشعر الحزين ، فجمع إليه ما وجده فى هذا المعنى من أشعار الآخرين ، حتى كان له من كل ذلك هذا الكتاب الذى نعده تذكارا لهذا الحادث الأليم ، وأثراً من آثاره في نفس مؤلفه ، وليس هو الأثر الوحيد الذى خلفته هذه الحادثة فى نفس أسامة

---

(١) القصيدة فى ديوان أسامة (٣٠٦ ـ ٣٠٩) ومطلعها :

حَمائِمَ الأَيكِ هَيَّجتُنَّ أَشْجَانَا ... فَلْيَبْكِ أَصْدَقُنا بَثًّا وأَشْجانا

(٢) الذيفان ـ بفتح الذال وتكسر : السم القاتل .

(٣) هـذا البيت مضمن ، فشطره الثانى لقريط بن أنيف العنبرى ، والبيت بتمامه كما فى حماسة أبى تمام (١/١٢) :

إذاً لقامَ بِنَصْرِى مَعْشَرٌ خُشُنٌ ... عِنْدَ الحَفيظَةِ إنْ ذُولُوثَةٍ لانَا

فيما نعتقد ، بل كانت له عنده آثار أخرى ، ففى كتابه «لباب الآداب» يورد جملة من بايغ المراثى[1] يختمها بقوله : «وقد أوردت فى كتابى المترجم بكتاب «التأسّى والتَّسَلِّى» من المراثى والتعازى ما غَنِيتُ به عن الإطالة هاهنا»[2] .

***

وإذا كان المؤلف قد جعل موضوع كتابه وغايته منه التأسى بما قاله الشعراءُ قبله فى بكاء المنازل والديار والوقوف على الدمن والأطلال ، فإن هذا الغرض المحدود لا يصح أن يصرفنا عن النظر فى المزايا الأُخرى التى حققها الكتاب ضمنا ، وهذه المزايا يمكننا أن نجملها فيما يلى :

١) جمع المؤلف فى هذا الكتاب نحو خمسة آلاف بيت من جيِّد الشعر العربى أكثر أصحابها ممن يحتج بشعرهم على اللغة وقواعدها ، وجمْع أسامة لها فى عصره ، ووصولها إلينا بخطه يعد مصدرا من مصادر الرواية لا يصح أن يُغْفَل .

٢) يعد الكتاب واحدا من كتب المختارات الشعرية الموضوعية ، فهو يمثل حلقة فى سلسلة الكتب التى تشبهه فى هذا النهج مثل الحماسات ، وكتب الأمالى ، والمعانى الكبير ... ونحوها .

٣) أورد أسامة للشعراء الذين اختار لهم – حتى لأصحاب الدواوين منهم – أشعاراً لانجدها فى غيره ، ونسب من بينها ما عزت نسبته فى كثير من الكتب ، وقد نبهنا على ذلك فى مواضعه من الكتاب ، ونذكر هنا أمثلة منها :

فى ص (٧٧–ب) أورد أربعة أبيات لكُثيِّر مطلعها :

أَأَطلالَ سُعْدَى باللِّوَى تَتَعَهَّدُ «أَقامَتْ على الإقواء أم تَتَجَدَّدُ»

والقصيدة التى منها هذه الأبيات فى ديوان كثير ، وقد أورد جامع الديوان صدر البيت المتقدم – وهو مطلع القصيدة – وذكر أنه لم يعثر له على عجز ، وكذلك ورد ناقصا فى الأغانى .

وفى ص (٣٤–ب) أورد أبياتا من شعر مهيار منها البيت التالى :

.. كانَ دَلالاً فَغَفَرْ ناهُ فتمَّ مَلَلا

---

(١) لباب الاداب (٤٠٥ – ٤١٠)

(٢) لباب الاداب / ٤١٠

والقصيدة فى ديوان مهيار (١٤٢/٣) لم يرد فيها هذا البيت ، وفى مكانه منها (ص-١٤٤) فراغ أشير إليه فى هامشه بأنه «مطموس فى الأصل لم تتبين منه كلمة» .

وفيه أبيات كثيرة منسوبة إلى الشريف الرضى، وأخرى منسوبة إلى الشريف المرتضى لم ترد فى ديوانيهما المطبوعين ، وكذلك أورد شعرًا للنابغة الجَعْدي لم أجده فيما جمعته «مارينا نللّينو» من شعره ، وقد زادها ناشر شعر الجعدى أخيرا عن رواية أسامة لها فى كتابه هذا .

٤) أورد أسامة فى هذا الكتاب قدرا كبيرا من شعره لم نجده فى ديوانه المطبوع ، وكذلك روى أشعارا كثيرة لأبيه وجده ، ولأخيه وعمه ، لم ترد فى غير هذا الكتاب ، فلم يذكرها العماد الأصفهاني وهو الذى أفرد للشعراء من بنى منقذ فى خريدة القصر (قسم شعراء الشام) أكثر من مائة صفحة ، وكذلك لم نجدها فى معجم الأدباء لياقوت[1] ، وقد احتفل لترجمة أسامة وذكر شعرًا لبعض أهله ، ولم نعثر عليها فى مظانها الأخرى .

٥) أسامة راوية مكثر[2] وشاعر مطبوع ، له بصر بنقد الشعر[3] ، ومن ثم جاء اختياره لهذه الأشعار اختيارا ممتازا يغلب عليه حس الشاعر المرهف ، والاديب الناقد ، وقد ظهر لنا أثر ذلك عند توثيق النصوص أثناء التحقيق ، فوجدناه يسقط من السياق الأبيات الغثة أو الكثيرة الغريب.

٦) قدم الكتاب مادة غزيرة من الشعر الذي قالته العرب فى المنازل والديار ، والرسوم ، والأطلال ، والدمن والمعاهد ، والمحال و العرصات والمغانى ، والآثار ، وما قيل في الربع والبيت .. الخ ، فجاء ذا وحدة موضوعية تعين الدارسين على تتبع هذه الظاهرة فى الشعر العربي ، ولا سيما مقدمات القصائد التي حظيت بالنصيب الأوفر من مختارات الكتاب .

---

(١) معجم الأدباء لياقوت (٥/ ١٨٨ ـ ٢٤٥)

(٢) نقل الذهبى فى تاريخ الاسلام عن السمعانى قوله : « قال لى أبو المظفر ـ يعنى أسامة ـ : أحفظ أكثر من عشرين ألف بيت من شعر الجاهلية » .

(٣) من كتب أسامة المعروفة كتاب البديع فى نقد الشعر (انظر ص ٤٩) .

٢ ـ منهج المؤلف

قسم المؤلف كتابه ستة عشر فصلا سردها فى آخر المقدمة ، وجرى على إيرادها فى الكتاب مرتبة كما جاءت فى المقدمة ، فالفصل الأول فى ذكر المنازل ، والثانى فى ذكر الديار ، والثالث فى المغانى . وهكذا حتى يصل إلى آخر فصول الكتاب ، وقد جعله «فى بكاء الأهل والإخوان» كأنما أراد بذلك أن يؤكد مرة أخرى غايته من تأليف الكتاب .

وهو يبدأ الفصل غالبا بما يجده مناسبا له من آيات الكتاب العزيز ، يردفه بتفسيرها من المأثور ، وقد يورد بعد ذلك ما يناسبه من الحديث الشريف إن وجد ، ثم يفيض فى مختاراته الشعرية ، وهو يشبه فى هذا منهجه فى كتابه « لباب الآداب » غير أن الغلبة هنا للشعر ، وهذا الأسلوب مألوف فى كثير من المصنفات نذكر منها : «العُرَر والغُرَر» للوطواط ، و «محاضرات الأدباء» للراغب الأصفهانى ، وهو شبيه أيضا بصنيع ابن عبد ربه فى «العقد الفريد» .

والملاحظ أنه كان يعنيه فى إيراد ما اختاره من أشعار وغيرها تحت الفصول التى عقدها مجرد مجئ اللفظ الذى عنون به الفصل فى شعر أو خبر أو نحوهما مما يراه مناسبا للإيراد ، وكان يفسر أحيانا المعنى اللغوى للفظ الذى جعله عنوانا للفصل ، كما فعل فى «فصل الديار» و «فصل الآثار» ، ولكنه لم يلتزم ذلك فى أكثر الفصول . وقد عنى التحقيق بذكر تفسير هذه الألفاظ فى حواشى الكتاب .

ويبدو أنه كان يحاول أن يجمع كل ماله صلة بعناوين الفصول التى قسم إليها كتابه ، من أشعار وطرائف ، ولكنه وجد ذلك عسيرا ، وهذا ما يشير إليه فى مقدمته بقوله : «وتتبع هذا المعنى صعب ، وحصره لايمكن» فعدل عن ذلك إلى إيراد «ما يبرِّد اللوعة ، ويسكِّن الروعة» .

ولقد حاولنا أن نعرف الأساس الذى أخضع له ترتيب مختاراته الشعرية فى كل فصل ـ بعد مراعاته لدوائر البحور ـ وكنا نظنه قد راعى الترتيب الزمنى لأصحابها حين لاحظنا شيئا من ذلك فى بعض المواضع غير أنه لم يطرد ، وربما كان الأقرب لأن يكون أساسا للترتيب عنده ـ فى تقديرنا ـ هو مستوى الشعر وأصالته فى المعنى الذى يعرض له ، فما استجاده فى ذلك قدمه ، ثم تلاه بما هو دونه فى الجودة ، وهكذا حتى يفرغ من مختارات الفصل .

أما ما يختاره من أشعاره وأشعار أهل بيته مما يراه مناسبا لموضوع الكتاب ، فكان يؤخِّره عما يورده للآخرين ، وقد أشار إلى ذلك بقوله : « . . . قلت : لِي على من تقدم من الشعراء فضل المزيَّة ، إذ كنت دونهم صاحبَ الرزيَّة ، فكان شعرى أولى أن يُقَدَّمَ على أشعارهم ، وإن قصرت بى البلاغة عن اقْتِفاء آثارهم ، لكن للمتقدم السبق ، وهو بالتقدمة أولى وأحق ، وإن كنت أنا وهم كما قال ذَرٌّ لأبيه : يا أبت مالك إذا تكلمت أبكيت الناس ، وإذا تكلم غيرك لم يبكهم ؟ فقال : يا بنى ليست النائحة المستأجرة كالثَّكلى[1] » ثم أردف هذه التقدمة بقوله : « وأنا ذاكر شيئا من شعر أخى وشعرى مما يدخل فى هذا الفصل » . وأحيانا يصادفه معنى فى شعر غيره ، ويجد لنفسه ما يشبهه ، فيورده عقيبه لهذه المناسبة .

ويخيل إلىّ أن المؤلف كان يريد أن يفسر فى أثناء الأبيات الألفاظ الصعبة التى ترد فى مختاراته الشعرية ، فعمد إلى شىء من ذلك فى أوائل الكتاب ، ثم بدا له ، فعدل عنه ، ربما لشعوره أن ذلك يفقد القارى لذة تتابع الشعر .

وقد لاحظنا أنه يستطرد أحيانا ، فيورد ما له صلة بالنص المختار ، كما فعل عند إيراده — فى فصل البيت — الآية الكريمة « وإذْ يَرْفَعُ إبراهِيمُ القَواعِدَ مِنَ البَيْتِ وإسْماعِيلُ » إذ دعاه ذلك إلى إيراد خبر « بناء البيت الحرام » الذى ساقه فى نحو ثلاثين صفحة من الكتاب ، ويذكر فى فصل الديار الآية الكريمة « هُوَ الذِّى أَخْرَجَ الذينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتابِ من دِيارِهِمْ لأَوّلِ الحَشْرِ » فيجره ذلك إلى الاستطراد بذكر إجلاء اليهود عن المدينة ، وخبر مقتل كعب بن الأشرف ، وسبب ذلك

وهو يشعر أحيانا أن هذا الاستطراد بعيد عن موضوع الكتاب فيعتذرُ عنه ، أو يمهد له بذكر موجبه ، كما فعل فى فصل المنازل ، حين أورد الأبيات التى أولها :

ما للمَنازِلِ لا يُجِبْنَ حَزِينا أَصَمَمْنَ أم قَدُم البِلَى فَبَلِينَا

حيث أردفها بقوله : « مرت بى هذه الأبيات فى خبر استطرفته فأوردته ، وليس مما قصدت

---

(١) أنظر ص (١٨ / أ) من الأصل

له ، ولكن الأبيات أوجبت إيراده » ، ثم يسوق الخبر ، وفيه قصة المأمون مع زنادقة البصرة والطنبلي .. وهي مشهورة أوردها الأصفهاني في الأغاني ، والنويري في نهاية الأرب ، والشريشي في شرح المقامات ، وغيرهم[1] .

ويورد بيتين لأبي الفِتْيان بن حَيُّوس يقول في ثانيهما :

تُخِيفُنِي بَلْدَةٌ حتى أَميلَ إلى أُخْرَى كَأَنِّيَ عِمْرانُ بنُ حِطَّانَا

ثم يتبعهما بقوله : «ربما وقف على هذين البيتين من يتطلع إلى معنى قول ابن حَيُّوس : «كأنِّيَ عِمرانٌ بن حِطّانا » فرأيت أن أذكر شيئا من أخباره ، وإن لم يقتض التأليف ذلك[2] » ثم يورد خبر عِمْرانَ بن حِطَّانَ ، وهربه من الحجاج ، واختفائه ، وتنقله في قبائل العرب على نحو ما نجده في الأغاني ، والكامل ، وشرح نهج البلاغة ، وخزانة الأدب ، وغيرها .

وهذا الاستطراد أمر مألوف في مصنفات تلك العصور ، وليس مما يعيب منهج المؤلف ، لأنه هيَّأنا لذلك بقوله في المقدمة : « .. فافتتحت كل فصل بما يوافق حالي ، ثم أفضت فيما يوافق ذا القلب الخالي ؛ لكيلا يأتي الكتاب وهو كله عويل ونِياحة ، ليس فيه لسوى ذي البَثِّ راحة» .

وكم أفاد الأدب من أمثال هذا الاستطراد مادة ومتعة ، وليت شعري أين كنا نجد ما في الأغاني من حوادث وأخبار ، وسير وأشعار ، وملح ونوادر ، وتراجم وطرائف ، لو أن الأصفهاني أخلى كتابه من كل ذلك ، وقصره على المائة الصوت المختارة للرشيد ؟ إنه لو فعل ذلك لحرم الأدب العربي من موسوعته الكبرى .

---

(١) الأغاني (٢/٥ وما بعدها) ونهاية الأرب (٣/٣٣٨ - ٣٤٢) وشرح المقامات (١/٢٧٩ - ٢٨٢) .

(٢) انظر ص (١٢٦/ أ) من الأصل .

٣ ـ توثيق نسبة الكتاب الى أسامة

هذا الكتاب افتقده قراءُ العربية ، وربما عدوه فيما ضاع من تراثها ، ولعلهم سمعوا به أول ما سمعوا من المقال الذى كتبه المستعرب الروسى كراتشكوفسكى[١] فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق[٢] ، وقد حكى قصته كاملة فى كتابه «بين المخطوطات العربية[٣]» فذكر أن المستعرب «فرين[٤]» كتب عنه فى العقد الثالث من القرن التاسع عشر ، فذكره بين المخطوطات المحفوظة فى المتحف الآسيوى ، وقال : إنه بخط. مؤلفه «أُسامة بن منقذ» ثم أشار إليه بعد ذلك المستعرب «دورن» خليفة «فرين» وقد لفتت هذه الإشارة نظر كراتشكوفيسكى ، فاهتم بهذا المخطوط. اهتماما كبيرا ، وأدهشه أن إشارة فرين إليه قد مضى عليها أكثر من قرن دون أن تثير انتباه أحد من الباحثين ، حتى المهتمين منهم بأُسامة بن منقذ ، ولا سيما المستعرب الفرنسى «ديرانبور» الذى قضى نصف حياته فى دراسة أُسامة وآثاره ، ومع ذلك لم يعرف شيئا عن هذا المخطوط

على أن كراتشكوفيسكى لم يقتنع فى أول الأمر بقول «فرين» : إن الكتاب بخط. مؤلفه أُسامة بن منقذ ، بل راح يدرس بنفسه هذه القضية ، وكان عليه أن يناقشها من ناحيتين :

الأُولى : نسبة الكتاب إلى أُسامة .

والثانية : إثبات أن نسخته الوحيدة المحفوظة بالمتحف الآسيوى هى بخط. أُسامة نفسه .

---

(١) هو اغناطيوس ايليانوفيتش كراتشكوفيسكى (١٨٨٣ ـ ١٩٥١ م) من كبار المستعربين الروس ، قضى أكثر حياته فى الدراسات العربية، وترك فيها من الآثار ما يربو على المائتين بين بحث وترجمة وشرح ونقد وكتاب ومحاضرة وملاحظة،اختير عضوا مراسلا فى المجمع العلمى العربى بدمشق منذ سنة ١٩٢٣ م وهو أول من كتب بالروسية فى آداب اللغة العربية منذ نهضتها فى القرن التاسع عشر .
(مجلة المجمع العلمى العربى ج ٧/١٢٢ـ١٢٦) .

(٢) مجلة المجمع العلمى العربى (تموز ١٩٢٥ ص ٣٣٥) .

(٣) ترجم هذا الكتاب الى العربية باسم « مع المخطوطات العربية » وفيه تحدث كراتشكوفيسكى عن « المنازل والديار » ومؤلفه ، تحت عنوان « معاصر أول حملة صليبية » .
ص ١٦٣ ـ ١٧٣ (ط التقدم بموسكو سنة ١٩٦٣)

(٤) هو المستعرب الروسى الكبير (خ.د. فرين ١٧٨٢ ـ ١٨٥١ م)

وقد ظهر له أن المخطوط ناقص من بدايته ونهايته ، فبدايته قد أُعيدت كتابتها فى فترة متأخرة بخط مغاير ، وعلى ورق جديد يخالف ورق الجزء الأساسى من الكتاب ، وكانت نهاية الكتاب غير موجودة ، وقد عزا ضياع هذه الصفحات – من أول الكتاب ومن آخره – إلى طريقة خزن الكتب فى الشرق ، إذ كانت توضع منسطحة بعضها فوق بعض ، وليست قائمة كما هو المعروف لنا الآن ، وكثيرا ما كان يحدث أن مالك الكتاب ، أو أى تاجر من تجار الكتب القديمة يقوم بتتميد بداية الكتاب ونهايته حتى يعطى له شكلا أكثر قِدَما ، أو ينسبه إلى مولف مشهور ، وهذا العمل يحمل دائما على التساؤل عن أصالة المخطوط .

غير أن الشك فى نسبة الكتاب إلى أُسامة يتبدد من نفس الباحث حين يقرأ قول المؤلف فى المقدمة : « ... فإنى دعانى إلى جمع هذا الكتاب ما نال بلادى وأوطانى من الخراب ... ولقد وقفت عليها بعد ما أصابها من الزلازل ما أصابها ... فما عرفت دارى ولا دور والدى وإخوتى ، ولا دور أعمامى وبنى عمى وأسرتى .. » إذ يجد فى هذه العبارة ما يؤكد نسبة الكتاب إلى أُسامة ويكشف عن تاريخ تأليفه فى وقت لاحق لحادثة الزلزال الذى وقع فى سنة ٥٥٢هـ. (= أغسطس سنة ١١٥٧م) واجتاح شمالىَّ سورية ، ودمّر ثلاثين مدينة من بينها قلعة « شيزر » موطن أُسامة وأُسرته بنى منقذ الأُمراء ، ومن ثم فإن المقدمة تعكس حدثا واقعيا يؤكد أن مؤلف الكتاب هو أُسامة بن منقذ الذى صدمت نفسه بفاجعة كبرى ، خلفت وراءها آثاراً لا تمحى ، وأبقت لنا كتاب « المنازل والديار » يحمل ذكراها الأليمة .

كذلك استطاع كراتشكوفيسكى – بملاحظته التعليقات التى كتبت فى أول الكتاب وفى نهايته – أن يثبت أن الكتاب بخط أُسامة ، وأن الصفحة الأخيرة منه كانت موجودة فى نهاية القرن السادس عشر الميلادى ، كما يذكر أديب دمشقى مشهور عاش فى تلك الفترة ، وكان الكتاب فى حوزته[1] ، وقد جاء فى هذه الصفحة قول أُسامة : إنه « كتبه لنفسه ، وفرغ من

---

(١) يشير الى تعليق ورد فى آخر الكتاب كتبه محمد أنور بن الموقع فى سنة ١٠٨٩ هـ ، وفى صفحة العنوان صيغة تملك بالشراء لمصطفى المدعو بموقع زاده فى سنة ١٠٦٩ هـ ، ويبدو أنه أبو محمد أنور المذكور آنفا ، وهو الذى نقل عن الطالوى قوله ان الكتاب بخط أسامة ، وكان الكتاب فى حوزة الطالوى قبل أن يصير لموقع زاده .

كتابته فى حصن كيفا[1] فى جمادى الأولى من سنة ٥٦٨هـ. (=١١٧٢م) وهذا يعنى أن أسامة كان قد ناهز الثمانين ، ويفسر بذلك أثر الرعشة الملحوظة فى كتابة بعض الحروف نتيجة لتقدم سنه .

ثم يحكى كراتشكوفيسكى رحلة الكتاب من حصن كَيفَا إلى المتحف الآسيوى بلينينجراد ، فيقدر أن أسامة حين عاد من حصن كيفا إلى دمشق فى أخريات حياته حمل معه مكتبته ـ كما كان يفعل دائما فى رحلاته ـ ومن ثم ظهر هذا المخطوط. أول ما ظهر فى دمشق فى نهاية القرن السادس عشر[2] (=١٠٢٦هـ.) ، وتشير حاشية كتبت فى النصف الثانى من القرن السابع عشر (=١٠٨٩هـ.) إلى أن آخر أوراقه قد فقد ، وفى القرن الثامن عشر ظهر هذا المخطوط فى حلب[3] ، ونفهم من حاشية أخرى كتبت فى سنة ١٢٢٥هـ. (=١٨١٠م) أن المخطوط وقع فى حوزة مالك جديد هو شاعر حلبى ذو شخصية اجتماعية[4] ، كان صديقا لرسو الفرنسى ، ومن ثَمّ وجد الكتاب طريقه بعد ذلك إلى المتحف الآسيوى بين كتب المجموعة الثانية لروسو فى سنة ١٨٢٥م ، وسمع به الناس لأول مرة مما كتبه «فرين» حينذاك ، ثم تأكدت هذه المعلومات فى دائرة المعارف الاسلامية ، وفى كتاب بروكلمان .

---

(١) قال ياقوت : حصن كيفا ، ويقال كيبا ، وأظنها أرمنية ، وهى بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر .

(٢) يشير بهذا الى حاشية وردت فى الصفحات الأولى تقول : « طالع فى هذا الكتاب المبارك داعيا لمالكه بطول البقاء ، وعلو الارتقاء ، الواثق بالملك الوهاب أحمد بن محمد بن خطاب المالكى عفا الله عنه فى سنة ست وعشرين وألف .

(٣) يشير الى حاشية وردت فى احدى الصفحات الملحقة بأول الكتاب تقول : « طالع فى هذا الكتاب العبد الحقير خادم نوال القرآن والسنة يس بن السيد حسن الشراباتى ـ عفا الله عنهما ـ فى سنة ١١٦٦ هـ .

(٤) يشير الى حاشية فى ص ١/١ نصها :

« للمرحوم الشيخ هاشم أفندى كلاسى تقريظ للكتاب هو :

هَذِى المنازِلُ شادَها مِنْ دَمْعِهِ عِنْدَ الوُقُوفِ على المَنازِلِ هامِلُ

فانْظُرْ مَعالِمَها البَدائِعَ مُنْشِداً « لَكِ يا مَنازِلُ فى القُلُوب مَنازِلُ »

وقد ضمن بهذين البيتين صدر مطلع قصيدة لأبى الطيب المتنبى هو :

لكِ يا مَنازِلُ فى القُلُوبِ مَنازِلُ أَقْفَرْتِ أَنْتِ وَهُنَّ منْكِ أَواهِلُ

كتبهما وتملكه العبد الفقير لرحمة ربه الغنى القدير نصر الله ولد المرحوم فتح الله بشارة الطرابلسى ـ جعله مباركا عليه ـ فى رمضان سنة ١٢٢٥ هـ .

هذه خلاصة ما كتبه كراتشكوفيسكى عن كتاب «المنازل والديار» فى كتابيه «مقالات مختارة[1]» و«بين المخطوطات العربية[2]» ، وكم هو جدير بالشكر على ما أسلف من دقة البحث ، والجد فى تحقيق نسبة الكتاب إلى مؤلفه أسامة بن منقذ ، وتأكيد أنه بخطه ، ونحن بدورنا نستطيع أن نضيف أدلة أخرى إلى ما قدمه كراتشكوفيسكى فى هذا الصدد منها :

١) التشابه الواضح بين منهج أسامة فى هذا الكتاب ومنهجه فى كتابه «لباب الآداب» إذ نراه فى «لباب الآداب» يبدأ الباب بآيات من القرآن الكريم ، تتلوها أحاديث نبوية ، ثم يورد بعد ذلك أقوالا حكمية ونوادر ، ثم يتبعها مختارات شعرية مناسبة للموضوع ، وكذلك جرى منهجه فى أكثر فصول كتاب «المنازل والديار» مع تغليبه المختارات الشعرية فيه .

٢) يذكر أسامة فى مواضع كثيرة من الكتاب أهله ، ويورد شعرًا له ، ولوالده ، وجده ، ولأخيه وعمه ، وقد أمكن توثيق كثير منها بمقابلته بما عثرنا عليه من شعر لهم فى مصادر أخرى.

٣) يشير أسامة فى مواضع من الكتاب إلى أخبار أوردها فى مؤلفاته الأخرى التى عرفت له قبل ظهور هذا الكتاب من ذلك قوله فى ص (٩٤-أ) «وقد أورد ت أخباره [يعنى بيهس ابن صهيب] وأشعاره فى صفراء فى كتابى المترجم بكتاب أخبار النساء ..»

٤) ذكر ياقوت فى معجم الأدباء (١٠ / ٩٥ وما بعدها) فى ترجمة ابن أبى حصينة - نقلا عن أسامة - تمليك ابن مرداس اياه دارا وضيعة حين شكا ابن أبى حصينة إليه كثرة عياله ، وقد أورد أسامه هذا الخبر فى المنازل والديار (١٨٥ب ، ١٨٦ ا)

٥) وهناك غير ما قدمنا ما يفيد فى توثيق نسبة الكتاب إلى أسامة ، وهى قرائن لانريد أن نرتقى بها إلى مرتبة الأدلة ، من ذلك أن الأصل المخطوط كتب فى كراسات فى كل منها عشر ورقات ، وفى كل صفحة ثلاثة عشر سطرا ، وعدد أوراق كل كراسة ، وكذلك عدد السطور فى كل صفحة هو العدد الذى التزمه أسامة فى كتابه الآخر «لباب الآداب» حتى ذهب الأستاذ يعتوب صروف فى مقدمته إلى أن الصفحات التى زادت سطورها أو نقصت عن هذه العدد

---

(١) « مقالات مختارة » الموضوع رقم ١١ ص ٢٧٤ (ط ليننجراد سنة ١٩٥٥) .

(٢) الترجمة العربية باسم « مع المخطوطات العربية » تحت عنوان « أول حملة صليبية » ص ١٦٣ - ١٧٣ (ط. دار التقدم بموسكو سنة ١٩٦٢)

زائدة على صفحات الكتاب الأصلية[1] ، وكذلك كانت مسطرة الأصل المخطوط لديوان أسامة ابن منقذ كما يشير ناشراه فى مقدمته[2] .

٦) لاحظ (فيليب حتى[3]) على أسامة فى كتابه « الاعتبار » قوله « فاقتطعوهم الروم[4] » هكذا على لغة طيِّئ وأزْد شَنُوءَة المعروفة بلغة « أكلونى البراغيث » وقد لاحظنا مثل ذلك فيما ساقه أسامة بأسلوبه فى كتاب « المنازل والديار » ص٣١[5] ب ، ص ٢٠٠ ب[6] ، ص ٢١٨ب .

٧) فى « لباب الآداب[7] » - فى خبر قدوم المغيرة بن حبناء على طلحة الطلَحات - ورد قوله : « ... أيما أحب إليك : عشرة ألف أو هذان الحجران؟ ... فأعطاه عشرة ألف » .

هكذا رسمت كلمة ألف فى الموضعين ، وصححه محققه فيهما (آلاف) وعلق عليه فى هامشه بقوله : « كتب فى الموضعين ألف ، وهو خطأ » وقد لاحظ مثل ذلك فى موضع آخر[8]. وقد تكرر ذلك فى « المنازل والديار » ففى صفحة (١٧٧-أ ، ب من الأصل) نجد النص التالى : « ... فبلغ ذلك سعيد بن العاص ، فبعث إليه بثمانية ألف درهم ، وروى المدائنى قال : باع جار لفيروز داره بأربعة ألف درهم ، فجئ بها ، فقال البائع : هذا ثمن دارى ، فأين ثمن جارى ؟ قال : ولجارك ثمن ؟ قال : لا أنقصه والله عن أربعة ألف ، فبلغ ذلك فيروز ، فأرسل إليه بثمانية ألف درهم ... الخ » وفى صفحة (٢٠٩ ا ، ب) فى خبر أورده قال : « ... ولكن لى ابن أخ يتيم فى حجرى ، قد زوجته إياها ، وأصدقتها عنه عشرة ألف درهم » وهكذا يجرى أسامة على طريقة واحدة فى رسم الكلمات فى الكتابين ، فإما أن تكون هذه لغته سار فيها على قاعدته مخالفا ما عرفه الناس فى تمييز العدد من الثلاثة إلى العشرة بجمع مجرور ،

---

(١) يعقوب صروف فى مقدمة «لباب الآداب» لأسامة بن منقذ بتحقيق الشيخ أحمد شاكر ص / ١٠ » (ط الرحمانية بمصر سنة ١٩٣٥)

(٢) ديوان أسامة بن منقذ بتحقيق : أحمد أحمد بدوى وحامد عبد المجيد ص / ٤١

(٣) مقدمة الاعتبار ص / ج ج (٤) الاعتبار / ٩٢ س ١٨

(٥) الاشارة هنا الى قول أسامة - فى خبر المأمون مع زنادقة البصرة - « فقال ما اجتمعوا هؤلاء الا لصنيع »

(٦) الاشارة الى قول أسامة فى الموضع الأول « ومناخات الرجال التى يرتفقون بها مارة الطريق » وقوله - فى الموضع الثانى - « .. فمازلن بها النساء يسهلن عليها الأمر .. »

(٧) لباب الآداب / ٨٥ (٨) لباب الآداب / ٩٠

أو تكون هذه هى قاعدته فى الرسم الاملائى ، وهذا ما نرجحه ، فهو يكتب كلمة آلاف هكذا (ألف) اختصارا فى الرسم ، وهو قريب من كتابتها فى رسم المصحف الشريف ، كما نجده فى قوله تعالى : « ... أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ ربُّكُمْ بثلاثَةِ آلافٍ من الملٰئِكَةِ مُنْزَلِينَ . بلَى إنْ تصْبِرُوا وتَتَّقُوا ويأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ ربُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلٰف من المَلٰئِكَةِ مُسَوِّمِينَ[1] » ويبدو أن هذه كانت القاعدة فى رسم كلمة (آلاف) بدل على ذلك قول ابن مَكِّىّ الصقلى فى تثقيف اللسان : «وتقول : عندي خمسة آلف تكتبها بغير ألف ، فإذا قلت : له عندى آلاف لم يكن بُدٌّ من إثباتها ؛ ليدل على الجمع ، إذ ليس قبلها عدد[2] » وبقيت هذه القاعدة بعد زمن أسامة بأكثر من قرن ، فقد رأيتها رسمت بهذه الصورة فى غير موضع من مخطوطة الجزء الثالث والثلاثين من كتاب «نهاية الأرب» للنويرى (٧٣٢هـ) وهذا الجزءُ من نسخة يقال : إنها بخط المؤلف[3] .

٨) فى آخر فصول المنازل والديار ، وهو «فصل فى بكاء الأهل والإخوان» لاحظنا التشابه القوى بين ما أورده فى هذا الفصل وبين ما اختاره فى كتابه «لباب الآداب» تحت عنوان «ومن بليغ المراثى[4] » فالاتفاق بين مختارات أسامة فى الكتابين تام حتى فى تتابعها ، وفى العبارات التى يقدم بها لهذه المختارات ، كذلك اتفقت روايته لها فيهما وإن اختلفت عنها فى مصادر أخرى .

٩) عبارة أسامة فى مقدمة الكتاب تشبه عبارته فى مقدمة ديوانه [5] ، وفى خاتمة كتابه لباب الآداب[6] ، ولا سيما فى صيغة الصلاة على النبي – صلى الله عليه وسلم – ففيها يقول : « ... صلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلى آله الطيِّبين الطاهرين ، وعلى أصحابه البررة المتقين ، وأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين صلاة دائمة إلى يوم الدين » .

---

(١) سورة آل عمران / ١٢٤ و ١٢٥ (٢) تثقيف اللسان/٣١٠

(٣) هـذا الجزء يؤرخ للفتـرة من ٧٢١ ـ٧٣١ هـ ، وهو آخر أجزاء الكتاب ، والنويرى توفى سنة ٧٣٢ هـ فى القول الراجح ، ونسخته المصـورة محفـوظة بدار الكتب تحت رقم/٥٥١ معارف عامة .

(٤) لباب الآداب (٤٠٥ ـ ٤١٠) (٥) ديوان أسامة ص : ٤٣

(٦) لباب الاداب / ٤٦٧ و ٤٦٨

١٠) حرص أسامة على أن يضمن المقدمة طريقته فى تصنيف الكتاب فجعله فصولا ، ذكر أسماء كل فصل منها ، وساق الكتاب مرتبا وفق هذه الفصول ، وكذلك فعل فى ديوانه ، فنص فى مقدمته على أنه «جعله مشتملا على ستة أبواب . . ذكرها وجمع الديوان منسوقا عليها[١] وكان هذا صنيعه أيضاً فى مقدمة كتابه البديع فى نقد الشعر ، وفى مقدمة كتابه لباب الآداب حيث يقسمه أبوابا وفصولا ، يلتزم فى كل منها منهجا واضحا فى التأليف .

على أن ما قدمناه من الأدلة والقرائن بالإضافة إلى ما ذكره كراتشكوفيسكى فى هذا الصدد يقوى نسبة الكتاب إلى أسامة ، ولكنه لا يؤكد أنه بخطه ، فقد لاحظت قوة الشبه بين خط الكتاب وخط كتاب «لباب الآداب» وهذا الأخير مثبت فى نهايته أن ناسخه هو «غنايم المعرى» كتبه لأسامة فى سنة ٥٧٩هـ ، وقد رجح الدكتور يعقوب صروف أن هذا الناسخ كان يبيض مسوّدات أسامة ، ثم يقرؤها على المؤلف ، ليصلح ما عسى أن يكون قد أخطأ فيه[٢] ، ومن ثَمَّ فإما أن يكون الكتاب بخط الناسخ « غنايم المعرى » المذكور[٣] آنفا ، أو يكون خط غنايم هذا أشبه الخطوط بخط أسامة بن منقذ ، ومثل هذا الشبه محتمل إذا اتحد الزمن .

---

(١) ديوان أسامة / ٤٤ (٢) لباب الاداب /١٣

(٣) يتحدث أسامة فى كتابه الاعتبار (٢٠٠ و ٢١٩ و ٢٢٠) عمن اسمه « غنايم » فيذكر أنه « كان من غلمان أبيه ، وكان يخرج معهم فى الصيد ، وكان صانعا جيدا فى اصلاح الشواهين والبزاة خبيرا بالجوارح ، ظريف الحديث طيب العشرة » فربما كان مع ذلك جيد الخط فاستعان به أسامة فى نسخ كتبه حين تقدمت به السن ، وعكف على التأليف وترك الصيد .

٤ ـ وصف نسخة الكتاب

يضم هذا الكتاب خمسين ومائتى ورقة متوسطة القطع ؛ إذ مساحة صفحتها (٢٠ × ٥ر١٤سم) وعدد سطور الصفحة ثلاثة عشر سطرًا ، متوسط كلمات كل سطر عشر كلمات ، ما لم يكن شعرًا ، فإن كان شعرًا استقل البيت بسطره . والحبر المكتوب به أسودُ برّاق لم يختلف فى الكتاب من أوله إلى آخره .

وخط الكتاب جميل واضح ، وهو مزيج مما نعرفه اليوم بقلمى الثلث والنسخ ، مع بعض اللوازم الخطِّيَّة التى نعرض لها بعد ، وحجم الحروف فيه سواء ، وإن اختلفت بريْةُ القلم أحيانا دِقّة وغلظا ، وضبط الحروف فى موضع اللَّبْس غالب . ما لم يكن موضع الإعراب من الكلمة محتملا أكثر من وجه ، فكثيراً ما يهمل ضبطه فى هذه الحالة ، إلا إذا كان أحد الاحتمالات مخِلاً بالمعنى ، فإنه يقيد الضبطَ بما يحدد المعنى المُراد ، ورسم الحركات شبيه بالمعروف لنا اليوم ماعدا الكسرة ، فإنه يضعها ـ إذا كانت فى وسط الكلمة ـ تحت الحرف مائلة ميلا شديدا من اليسار إلى اليمين عكس ما نعهده الآن ، فإذا كانت فى آخر الكلمة رسمها كما نرسمها اليوم .

وحروفه المُعجمَة قليلة النقط ، وكلماته نادرة الهمز ، إلا أن تكون الهمزة قافية فإنه يثبتها ، وهو يرسم قُلامَةَ ظفر فوق الراء غالبا ، ليميزها من الزاى المعجمة التى كثيراً ما يهمل نقطها اعتمادًا على أن ترك علامة الراء يعينها ، وهو يضع قلامة الظفر هذه فوق السين أيضا ، وكأنها عنده علامة مميزة لإهمال الحرف من الإعجام ، وفى المثال التالى ما يوضح بعض ما تقدم : «قالت الخنسا بنت عمرو بن الشريد» نقط من كلمة «الخنساء» النون وحدها ، وترك الهمزة ، وأهمل نقط بنت وابن ـ وهو يهملهما دائما فى الكتاب ـ ونقط من كلمة «الشريد» الشين وحدها ، ورسم فوق الراء قلامة الظفر ، وهو يكتب البيت من الشعر سطرًا متصلا لايفصل بين شطريه ، وهذا شىء مألوف فى كتابة الشعر فى مخطوطات ذلك العصر ، وظلّ معهودًا أيضا فى عصور تالية ، وقد استعمل للفصل بين الآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة ، وما يورده أحيانا من أخبار نثرية علامة يرسمها أشبه بحرف الدال المفردة إذا أغلقت فتحتها بما يشبه

التاء المربوطة ، وهى أقرب – فى تقديرى – إلى أن تكون ألفا رسمت على قاعدة الخط الديوانى ، ووصل فى طرفها هاء رسمت كالتاء المربوطة ، فهو الاختصار الذى اصطلح عليه لكلمة «انتهى» والذى نكتبه اليوم هكذا (اهـ) .

ويمتاز خط الكتاب بتعليق بعض الحروف المفردة أحيانا ، فإذا وقعت بعد الدال أو الذال أو نحوهما ألف علقت بها . وكذلك تُعَلَّق الواو بالميم بعدها فى مثل كلمة (يوم) وأحيانا تعلق الواو بالتاء المربوطة قبلها فى مثل (للمشْرَفِيَّة والقَنا) حيث كتبت التاء المربوطة فى (المشرفية) مفتوحة ككتابتها بقلم الثلث وعلقت الواو بها . وهو يعلِّق كلمة (بن) الواقعة بين علمين بما قبلها عادة ، وأكثر ما يعلق من الحروف الواو والأَلف كما يظهران فى البيت التالى :

أَوْفَى بذِمَّتِهِمْ إذا عقَدُوا وأَعَفَّ عندَ العُسْرِ واليُسْرِ (١)

وربما علق الأَلف بأَلف قبلها فى مثل : (لنا الهوَى) و (لنا الغداة) حيث وصلت ألف «الهوى» و «الغداة» بأَلف (نا) مِنْ أعلاها .

وهو يترك الكاف غالبا من غير شرطة الرأس إذا كانت (واقفة) أَوَّلًا أو وسطًا ، اكتفاءً بميل جسمها إلى اليسار ميلا يميزها عن قاعدة اللام فى هذين الوضعين ، فإذا رسمت الكاف مبسوطة هكذا (ک) – وقليلا ما يكتبها كذلك – رسم شرطة الرأس فيها ، غير أنها تعد قصيرة شيئًا ما عما نعهده اليوم ، فإذا وقعت طَرَفا فإنه يضع لها شرطة الرأس أحيانا ، وأحيانا يتركها ويرسم فى فراغها ما يشبه الهمزة ، وربما أخلاها من العلامتين إذا أَمِن التباسها باللام ، وقاعدته فى اللام التى تقع طرفا أن يتركها مفتوحة لا يدوِّر طرفها سواء اتصلت بما قبلها أم انفردتَ ، وقريب من ذلك صنيعه بالنون والقاف مع إشالة يسيرة لطرفيهما ، أما الباءُ والتاءُ والثاءُ فإنها إذا وقعت طرفا متصلة بما قبلها ترك طرفها الأَيسر دون تَدْوِيرٍ ما ، فإذا أُفردت قوس بدايتها وترك طرفها الأَيسر مبسوطا .

وقد لاحظنا اطراد صفة الخط على هذا النحو فى الكتاب كله ، ما عدا الورقة الأُولى منه ، وثلاثَ أَوراق أخرى أُ[illegible] بأوله ، ولنا فى هذه المزيدات كلمة نوردها بعد ، وفى صفة هذا

---

(١) وضعنا تحت الحرفين المعلقين خطا يشير الى موضع التعليق فى الأصل .

الخط. ما يُمَثِّل مرحلة من مراحل تطور الخط. العربي قد تفيد فى معرفة ما يتميز به الخط. فى عصر المؤلف ، والظاهرة التى تَلْفِت النظر هى أن الناس حينذاك قد بدءُوا يخرجون على قيود الخطوط المستقيمة ، ويعكفون على المنحنيات .

أما قاعدته فى الرسم الإملائى فإنها لا تكاد تختلف عن قواعدنا اليوم إذا استثنينا مسألتين : أولاهما : الهمزة إذا وقعت فى وسط الكلمة أو فى آخرها ، ولاسيما تلك التى نرسمها مفردة فى هذين الموضعين :

والثانية : ألف المد .

أما الأُولى : فإن كان حقها أن ترسم على ياءٍ أو واو فإنه يتركها اكتفاءً بالياء والواو ، كما فى هذين المثالين من قول عمر بن أبى ربيعة :

سايلا الرَّبْع بالبُلَيِّ وقُولا هِجْتَ شوقًا لِىَ الغَدَاةَ طَوِيلَا[1]

وقوله أيضا :

يا رَفِيقَىَّ قد مَلِلْتُ ثوآى بالمُصلَّى وقد شَنِيت البقِيعا[2]

ما لم تكن مضمومة وبعدها مد مصور بصورتها ، فإنه يضع الهمزة فى هذه الحالة كما فى قول جميل بن معمر :

أَلَمْ تَرْبعْ فَتُخْبِرْكَ الطُّلولُ وقد سَأَلت لو نَفَع السّؤولُ[3]

وإن كان حقها أن ترسم مفردة رسمها فوق ألف ووضع مدة هكذا (~) على الحرف الذى قبلها ، ويستوى فى ذلك أن تقع وسطا ، كما فى قول حفص الأموى :

فما أَبْقَت الأَيامُ من عَرصاتِها لمن جَآها غيرَ الرسومِ الدَّوارِسِ[4]

أو تقع طرفا ، كما رسمها فى قول الشريف المُرْتَضَى :

فلقد عَهِدْتُكَ والزمانُ مسالمٌ فيك المُنى وشفآ دَآ المُوجَعِ[5]

---

(١) ص ٨٠ ب
(٢) ص ٦٠ ب
(٣) ص ١٧٥
(٤) ص ١٦٧
(٥) ص ١٨٢

وقد اجتمعتا فى كلمة هؤلاء التى يرسمها هكذا (هـاولا) .

فإذا كانت مع تطرفها قافية منصوبة فإنه يرسمها على ألف أخرى ، كما فى قول البحترى :

كيف أَغْدُو من الصَّبابة خِلْوًا بعد ما أَضْحَتِ الديارُ خَلاأ[1]

أما إذا تطرفت بعد ياء ساكنة مثل (شيء) أو بعد واو ساكنة مضموم ما قبلها مثل (سُوء) فإنها ترسم على الياء فى الحالة الأولى – وهى كثيرة الورود فى الكتاب – وعلى الواو فى الحالة الثانية ، كما فى قول معن بن أوس المُزَنِيّ :

إذا الحَسَبُ الرفيعُ تواكَلَتْه بناه السُّؤ أوشك أن يَضِيعا[2]

وأما الثانية ، وهى ألف المد ، فإنه يحذفها من أسماء الإشارة – كما هى القاعدة – إلا هذان وهؤلاء ، فإنه يثبت ألفيهما ، ويكتبهما هكذا (هاذان ، هاولا) وربما كانت كلمة هؤلاء فى رسمه محذوفة الألفين ، وهاتان الألفان المثبتتان مكان همزتيها على قاعدته .

وحذف ألف المد من كلمة (لكن) ومن الأعلام فى ابرهيم ، واسمعيل ، واسحق ، وهرون ، وسليمن ، وهو فى هذه يتابع رسمها فى المصحف الشريف ، وحذفها أيضا من : عثمان ، وسفيان ، ومعاوية وخالد ، والحارث ، فجاءت هكذا : (عثمن ، سفين ، معوية ، خلد ، الحرث) . وإذا وقعت الألف ممدودة فى أول الكلمة أهمل رسم المدة (~) فوقها فى مثل « آيا » و « آى » . وقد اجتمع عنده إهمال رسم المدة فى أول الكلمة ، وحذف ألف المد فى وسطها فى كلمة (الاف) فرسمها هكذا (الف).

وفى الكتاب ما يدل على أن المؤلف أعاد النظر فيه بعد ما أتمّه ، فكتب فى بعض المواضع كلمة (مكرر)[3] أو (كتب سهوا[4]) وأصلح بعض أخطاء بين سطوره أو خارجا عنها[5] ، وأضاف فى هوامش بعض الصفحات ما تيسر له من مختارات مناسبة عثر عليها بعد ما كتبه[6].

كذلك وجدناه فى مواضع كثيرة منه يفسر الكلمة الصعبة بكتابة معناها تحتها مباشرة ،

---

(١) ص ٥٦ آ (٢) ص ٦٠ ب

(٣) الاشارة هنا الى ما لاحظنا فى ص (١٩ أ/ و ٥٠ ب) من الاصل حيث أورد أبياتا لنفسه ثم شطبها وكتب امامها (مكرر) .

(٤) الاشارة هنا الى ما لاحظنا فى ص (١٣٥/ب) حيث اورد فى اثناء (فصل فى ذكر البلاد) أبيـاتا فى الرثاء لابن الحـداد الأندلسى ثم كتب امامها فى الهامش عبارة (كتب سهوا) .

(٥) الاشارة هنا الى مالاحظناه فى الصفحات (٣٥/أ و٣٩/ب و١٤٧/ب و٢٢٧/ أ و ب) وفى غيرها .

(٦) الاشارة هنا الى مالاحظناه فى الصفحات (٧/ أ و ٦٥/ب و ٧٥/ أ و ٨٨/ب و ١٠٢/ب و١١٣/ب) وغيرها .

أو يذكر تحت بعض الأماكن التى ترد فى ثنايا الشعر أحيانا كلمة (موضع ، أو مواضع) غير أنه لم يلتزم ذلك دائما .

وفى هوامش الكتاب ما يدل على أن كثيرين قد تداولوه بالقراءة والتملُّك ، وقد ورد فى نهايته تعليق كتبه محمد أنور بن المُوقِّع (فى سنة ١٠٨٩هـ) نقله عن الطالوى (من أدباء القرن الحادى عشر) الذى يذكر أن الكتاب « بخط مؤلفه أسامة بن منقذ كتبه لنفسه بمدينة حصن كيفا سنة ثمان وستين وخمسمائة » وأنه « لتقادم الأزمان ، ومرور الأيام والأعوام انخرم آخره ».

ونحن نعتقد أن الخرم الذى يشير إليه هذا التعليق ليس كبيرا ، وهو فى تقديرنا لايعدو أن يكون تكملة الكراسة الرابعة والعشرين التى بقيت منها ورقة واحدة ، فيكون المفقود تسع ورقات ، ربما كان بعضها قد ترك أبيض فى نهاية الكتاب وقاية له ، وقد حملنا على هذا الاعتقاد أن أسامة قد استوفى فصول كتابه كلها متتالية وفق الترتيب الذى ذكره فى مقدمة الكتاب ، وآخر هذه الفصول هو « فصل فى بكاء الأهل والإخوان » وقد استغرق من مصورة الكتاب ستين صفحة ، وهو بذلك يعدّ من أطول فصول الكتاب إن لم يكن أطولها جميعا ، وقدّم له بقوله : « هذا الفصل كان موضعه صدر الكتاب ، إذ كانت المنازل والديار إنما تبكى لسكانها من الأهل والإخوان والاحباب لكننى أخرته لأختم به الكتاب » .

والورقة الأولى من الكتاب قد كتبت فى زمن متأخر عن زمن كتابة الأصل ، فهى بخط جميل نرجع نسبته إلى القرن الحادى عشر الهجرى ، وأحد وجهيها يحمل عنوان الكتاب واسم مؤلفه فى ثلاثة أسطر بقلم الثلث مع كبر حجم الحروف شيئًا ما ، وصورته هكذا .

كتاب المنازل والديار

لمجد الدولة الأمير أسامة بن مرشد

ابن على بن مقلد الكنانى (١)

ويشغل العنوان قرابة نصف الصفحة ، وتحته عدة تملكات منسوبة فى تواريخ متعاقبة ،

---

(١) نرجح أن يكون الذى كتب العنوان قد تصرف فى اسم المؤلف ، فحمله الاعجاب به على ذكر لقبه « مجد الدولة » ووصفه بالأمير ، واختصر فى سلسلة نسبه ، وقد حملنا على هذا الترجيح صورة صفحة العنوان فى كتابه الاخر (لباب الآداب) الذى أملاه أسامة على [illegible] — لكبر سنه — فى سنة ٥٧٩ هـ ووهبه لابنه مرهف ، فصيغة العنوان فيه هكذا — وهى على ثلاثة أسطر أيضا :

كتاب لباب الآداب

تأليف أسامة بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر

ابن منقذ الكنانى . غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

والوجه الآخر منها فيه بداية مقدمة المؤلف ، ويبدو أن الأصل المنقول عنه كان بيد الكاتب أثناء إعادة هذه الورقة ، لاتساق الأسلوب مع سائر المقدمة ، ولالتزام الكاتب صفة الأصل فى عدد سطور الصفحة والنسبة العددية لكلمات كل سطر دون ضرورة لهذا الالتزام إلا أن تكون مطابقة الأصل .

وقد ألحق بالكتاب من أوله ثلاث ورقات ، الورقة الأولى منها فى أحد وجهيها خاتم مطموس ، وعدة تملكات متقاربة التواريخ ، وبضعة تعليقات باللغة الفارسية أكثرها شعر فيه تقريظ للكتاب ، وفى الصفحات الأربع التالية لها ترجمة لأسامة بن منقذ لفقها من بعض الكتب — كما يذكر — مالك للكتاب (فى سنة ١٠٠٦هـ.) هو الأديب الدمشقى محمد بن أحمد بن محمود الطالوى ، وأكثرها ملخص عن ابن خلكان (فى وفيات الأعيان) وقد أضاف بعد الترجمة جملة مقطوعات من شعر أسامة وجدها فى بعض الكتب ، وترك صفحة بيضاء تفصل بين هذا الملحق وأصل الكتاب .

هذه صفة الكتاب كما تعرضه علينا نسخته التى نشرها معهد الشعوب الآسيوية بموسكو سنة ١٩٦١م مصورة عن المخطوطة المحفوظة بالمتحف الآسيوى بلينينجراد ، وهى التى اعتمدت عليها فى التحقيق ؛ لأنها نسخة الكتاب الوحيدة التى لاتعرف له — حتى الآن — نسخة غيرها ، وقد ساغ لى أن أعتمدها أصلا فى تحقيق الكتاب بعد أن اختبرتها طويلا ، واطمأنت نفسى إلى سلامتها ، لأمور ذكرت بعضها فى توثيق نسبة الكتاب إلى أسامة ، وكذلك ما لاحظته فى الهوامش الاستدراكيّة ، والتصويبات فى بعض المواضع ، وقد ذكرت آنفا دلالتها على أن المؤلف قد أعاد النظر فيه بعد أن أتمه ، وكذلك القراءات العديدة المدونة فى حواشى بعض الصفحات .

وقد لفت نظرى فى هذا الصدد أمران أفدت منهما كثيراً فى الثقة بسلامة النسخة :

أولهما : أن الكتاب يتألف من ثلاث وعشرين كراسة ، وبعض كراسة ، تضم كل كراسة منها عشر ورقات ، حرص المؤلف على ضبط ترتيبها ، فكان يكتب فى الزاوية اليسرى من أعلى الصفحة الأولى فى كل كراسة ترتيبها العددى بالأحرف هكذا : « .. ثانية ، ثالثة ، رابعة ... وهكذا إلى رابعة وعشرين » . وقد وجدت قطع الورق ، وصفة الخط —

فى جملتها – ونظام الكراسات ، وعدد الأوراق المشتملة عليها كل كراسة ، وكذلك عدد الأسطر فى كل صفحة يتفق تماما مع نظام مخطوطة كتابه « لباب الآداب » التى كتبت فى حياة أسامة سنة ٥٧٩هـ. ، كما وصفها الدكتور يعقوب صروف فى المقتطف (ديسمبر ١٩٠٧) ونقلها عنه العلامة المرحوم الشيخ أحمد شاكر فى مقدمة « لباب الآداب » .

ثانيهما : التزام « التعقيبة [1] » فى صفحات الكتاب ، وهى – وإن كانت قد كتبت بخط مغاير يشهد بحداثتها – تدل على أن كاتبها قد ضبط بها توالى صفحات كل كراسة من كراسات الكتاب بعد أن ضمن له كاتب الأصل ترتيب هذه الكراسات ، كما أشرنا من قبل .

وقد أفدت من هذه الملاحظة فى اكتشاف خرم وقع فى موضع من مصورة الكتاب التى نشرها معهد الشعوب الآسيوية بموسكو ، ففى نهاية الصفحة الأخيرة من الكراسة السابعة عشرة كانت التعقيبة هى «فصل فى ذكر البيت » وفى أول الصفحة التالية لم أجد التعقيبة السابقة ، ووجدت العنوان هو «فصل فى ذكر المساكن ... الخ » وفى الموضع الذى يكتب فيه الترتيب العددى للكراسة كتب « حادية عشرة » وهى صفحة تقدمت قبل ذلك فى ترتيبها الصحيح ، ولم تتصل هنا بما بعدها فى السياق ، والموضع هنا للكراسة «الثامنة عشرة » كما يقتضى الترتيب ، وحق العنوان الذى يثبت فى أول الصفحة هو «فصل فى ذكر البيت » كما تشير التعقيبة ، وكما يوجبه نسق فصول الكتاب كما سردها أسامة فى المقدمة ، فقطعت بوقوع خرم فى هذا الموضع ، ورأيت أن الأمانة العلمية تقتضينى الرجوع إلى المشرف على نشر الكتاب فى معهد الشعوب الاسيوية بموسكو ، الأستاذ « أنس خالدوف » المستعرب الروسى ، فكتبت إليه بهذه الملاحظة ، مقدراً أن يكون قد وقع خطأ فى تصوير الأصل ، فكرر تصوير الصفحة الأولى من الكراسة الحادية

---

(١) التعقيبة فى اصطلاح الناسخين القدماء هى هذه الكلمة التى تكتب فى أسفل الصفحة وتعاد فى أول الصفحة التاليه ، لتدل على اتصال الكلام ، وعلى أنه لم يسقط منه شىء بين الصفحتين ، وقد بقيت مستعملة زمنا فى المطبوعات القديمة ، ولا سيما المطبوعات الازهرية التى كانت تضم صفحاتها أكثر من كتاب ، حيث نجد فى الصفحة عدة تعقيبات : تعقيبة للمتن ، واخرى للشرح ، وثالثة للحاشية المحيطة بهما .

عشرة ، ورقمها فى الكتاب هو (١٠٩ـأ) وأثبتت خطأ فى مكان صفحة لم تصور هى الصفحة الأُولى من الكراسة الثامنة عشرة ، ورقمها فى الكتاب هو (١٩٠ـأ) ورجوته مقابلة النسخة المصورة بالأَصل المخطوط المحفوظ لديه فى هذين الموضعين ، وسألته ـ إن صح ما قدرته من وقوع هذا الخطأ ـ أن يصور الصفحة التى أغفل تصويرها ، ويرسل إلىّ بها ، ليتسنى لى وضعها فى مكانها الصحيح من الكتاب . ولم ألبث أن تلقيت منه صورة للصفحة التى سقطت أثناء تصوير الكتاب ، ومعها ردّه على رسالتى ، وفيه يؤكد صحة ما قدرته ، ويأسف لوقوع هذا الخطأ بقوله « ... أما قصة الصفحتين (١٠٩ـأ ، و ١٩٠ـأ) وقد وجدتم يا سيدى فيهما غلطا من أغلاط النشر حيث كررت الصفحة (١٠٩ـأ) مرتين ، وأُرسل أنا الآن صورة فوتوغرافية عن الصفحة (١٩٠ـأ) وأبقى معتذرا مخجولا (؟) ، وشاكرا ... » .

٥ ـ منهج التحقيق

حين قمت بعملي في تحقيق هذا الكتاب جعلت همي ـ بعد سلامة النص ، والعناية بالضبط ، ووضع علامات الترقيم ـ توثيق النصوص الواردة في الكتاب ، بالرجوع إليها في مظانّها على حسب طبيعة النص ، فحينما يكون تفسير آية كريمة فإننا نطلبه في مصادره من كتب التفسير ، ولا سيما تلك التي تعتمد على المأثُور ، حيث لا حظنا ذلك فيما ساقه من هذا القبيل ، وإذا كان حديثا شريفا رجعنا إليه في مصادره من الكتب الصحيحة ، وقد وجدت « حديثا » منها لم يذكره غير العَلقَمِيّ في مسنده الذي ما زال مخطوطا ، وشذت بعض أحاديث لم استطع تخريجها ، وقد سبقني إلى ملاحظة ذلك المرحوم العلامة الشيخ أحمد شاكر حين وجد للمؤلف في كتابه الآخر (لباب الآداب) نظائر لهذه الأحاديث ، «ونصح القارئ الا يحتج بها ؛ إذ الحديث عن رسول الله شديد والاحتياط فيه واجب... والمولف لم يكن من العلماء بالسنة[1] . » وحين يكون النص خبراً اقتضته مناسبة فإننا كنا نرجع إليه في كتب الأدب الجامعة من أمثال الأغاني والامالي ، والكامل ، وأشباهها مما يظن وجوده فيها .

أمّا إذا كان النص شعرا منسوبا لقائله رجعنا إليه في ديوانه ، ولا سيما إذا كان مطبوعا ، وإن لم يكن منسوبا ، أو كان لا يعرف لصاحبه ديوان ، التمسناه في مظانّه من كتب الأدب كالأغاني ، والأمالي ، ودواوين الحماسة ، والشعر والشعراء ، والمعاني الكبير ، ويتيمة الدهر ، وتتمتها ، ومعجم الأدباء ، وخريدة القصر بأقسامها ، وكتب الطبقات ونحوها ، وكنا نعنى بالإشارة إلى ما قد يكون من اختلاف بين رواية المصنف لهذه النصوص الشعرية والنثرية ، وروايتها في مصادرها الأخرى ؛ لتتم بذلك الفائدة .

ولقد أشرنا في منهج المؤلف إلى أنه حاول أن يفسر بعض الألفاظ. الصعبة في ثنايا مختاراته

---

(١) اذا كنت أوافق المرحوم الشيخ شاكر في عدم الاحتجاج ببعض أحاديث أسامة في هذا الكتاب من باب الاحتياط فانني لا أوافقه فيما وصفه به من عدم العلم بالسنة ، فقد ترجم له ابن الصابوني (في تكملة اكمال الاكمال /٢٩٢ ط المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٥٧ بتحقيق مصطفى جواد) بين المحدثين ، وقال مالفظه « .. سمع من أبي الحسن علي بن سالم السنبسي وغيره ، وحدث ، وسمع منه الحافظ أبوالقاسم علي بن الحسن بن عساكر ، وأبوسعيد عبدالكريم ابن محمد السمعاني وأبو المواهب الحسن بن هبه الله بن صصرى الربعي ، وعبد الغني بن عبد الواحد المقدسي .. وغيرهم ، وروى لنا عنه جماعة من شيوخنا » ومن كان هذا شانه فاننا نظلمه اذا وصفناه بعدم العلم بالسنة .

الشعرية ، ودرج على ذلك فى بعض المواضع من أوائل الكتاب ، ثم عدل عنه ، ولكن عدوله ذلك لم يصرفنا عن الوفاء له بهذه الفائدة فى حواشى الكتاب ، وقد راوحنا فى ذلك بين أسلوبين :

الأول : الاكتفاء بتفسير الألفاظ الصعبة حين يكفى هذا التفسير لفهم المعنى المراد ، وفى هذه الحالة كنا نستغنى بضبط اللفظ الوارد فى الشعر عن إعادة ضبطه أثناء التفسير ، خوفا من الإطالة ، لا سيما وأن الحرف المختار للهوامش لا يقبل الضبط ، ولا سبيل إلى ضبطه والحالة هذه إلا بالعبارة ، وبها يطول القول ، وقد يكون للفظ المفسر بضبطه الوارد أكثر من معنى ، فنعمد إلى ما يتطلبه السياق من بينها بمعونة القرائن ، ونغفل ما عداه ، والمثال التالى يوضح ذلك :

أَلاَ أَيُّها الرَّسْمُ المُحِيلُ أَلَمْ يَكُنْ بِكَ الأَنَسُ الراضُون والخَيْل رُوَّدَا ؟

فلفظ الأَنَس ورد مضبوطا بفتح الهمزة والنون ، وهو بهذا الضبط يرد لمعان منها : سكان الدار ، والحى المقيمون ، والإنس خلاف الجِنّ ، والأُنْس بمعنى الطمأنينة ، والمعنى الذى يقبله البيت هو الأول والثانى ، ومن ثم عمدنا إليهما مغفلين المعانى الأُخرى .

الثانى : شرح ما يصعب فهمه من الأبيات شرحا موجزا ، معتمدين فى ذلك على شروح القدامى لبعض الدواوين ، أو فى كتب الأدب الجامعة .

كذلك عنينا بتحديد المواضع والبلدان الواردة فى ثنايا النصوص ، فرجعنا فيها إلى ياقوت والبكرى فى معجميهما ، وأحيانا كنا نعتمد على «مراصد الاطلاع» لعبد المؤمن بن عبد الحق البغدادى و «الجبال والأمكنة والمياه» للزمخشرى ، وراعينا الإيجاز فى ذلك ما أمكن .

وكثيرا ما ورد ذكر أسماء مواضع لم تستطع كتب البلدان أن تعطينا تحديدا مقبولا لها ، وإنما نجدها تكتفى بالقول فيها : إنها موضع ورد فى شعر فلان ، وورود فى شعر فلان قد يكون مفيدا فى أنه موضع ، وهو فى ذلك كوروده فى النص الذى نريد شرحه ، لا أكثر من ذلك ولا أقل ، ومن ثم لم نجد كبير غناء فى ترديد مثل قولهم : « أطائف : موضع فى قول المُرَقِّش :

بُودِّكَ ما قَوْمِى إذا ما هَجَرْتُهم إذا هَبَّ فى المَشْتاةِ ريحُ أُطائِفِ »

وأخيرا . فقد جعلنا من تتمة عملنا ـ بالإضافة إلى هذه المقدمة ـ وضع فهارس للكتاب تشتمل على القوافى وبحورها ، والأعلام الواردة فيه ، وكذلك البلدان والمواضع ، وما إليها مما يحرص عليه المنهج الحديث فى التحقيق .

٦ ـ ترجمة المؤلف *

الحديث عن حياة أسامة يفضي بنا إلى الحديث عن أسرته ، ويقتضينا من جهة أخرى أن نتحدث عن شيزر مسقط رأس أسامة ، وقاعدة أمارة بني منقذ التي شهدت ملكهم زهاء ثمانين عاما ، وأرى أن أقدم الحديث عن شيزر ، ثم أورد بعده نسب أسامة وأخبار أسرته ، ثم يتلو ذلك الكلام عن أسامة : حياته ومنزلته وآثاره .

---

* هذه الترجمة استقينا مادتها من مصادر عدة أهمها :

١ ـ كتاب الاعتبار للمؤلف ، ومقدمة ناشره فيليب حتي (ط جامعة برنستون سنة ١٩٣٠ م)

٢ ـ معجم الأدباء لياقوت ٥/١٨٨ ـ ٢٤٥ (ط دار المأمون) .

٣ ـ وفيات الأعيان ١/١٧٥ (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد) .

٤ ـ تاريخ ابن عساكر ٢/ ٤٠٠ (ط روضة الشام) .

٥ ـ أعلام النبلاء ٤/٢٧٦ .

٦ ـ البداية والنهاية ١٢/٢٣١ (ط السعادة بمصر سنة ١٩٣٢) .

٧ ـ شذرات الذهب ٤/٢٧٩ « ط المقدسي) .

٨ ـ النجوم الزاهرة ٥/٢٨٨ و ٢٩٣ ، و ٦/٦٠ و ١٠٧ (ط دار الكتب) .

٩ ـ مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٢٤١ (ط حيدر آباد سنة ١٩٥١) .

١٠ ـ الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي /٣٨٤ (ط الترقي بدمشق بتحقيق جعفر الحسني) .

١١ ـ تكملة اكمال الاكمال لابن الصابوني (ط المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٥٧ بتحقيق مصطفى جواد » وفي هامش ص ٢٩٢ منه ذكر محققه أن لأسامة ترجمة في أعيان الشيعة ج١٠/٥

١٢ ـ خريدة القصر قسم شعراء الشام (ط المجمع العلمي بدمشق بتحقيق شكري فيصل ج١/٤٩٨ ـ ٥٤٧) .

١٣ ـ معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي لزامباور ترجمة زكي حسن وآخرين ص ١٦٥ (ط جامعة القاهرة سنه ١٩٥١) .

١٤ ـ معجم المطبوعات العربية لسركيس / ٢٥٦ .

١٥ ـ دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية (ج ٢/٧٩)

١٦ ـ تاريخ مختصر الدول لابن العبرى نشر أنطون صالحاني .

ومن المباحث الحديثة .

- مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ١٠/٢٣٠ و ٣٠٥ .
- مقدمة لباب الآداب بقلم المرحوم الشيخ أحمد شاكر (ط الرحمانية ١٩٣٥ م)
- مقدمة ديوان أسامة بن منقذ بقلم المرحوم أحمد أحمد بدوي (ط الأميرية ١٩٥٣ م) .
- الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي /٢٠٢ ـ ٢٠٧ (ط دار الكتاب العربي ١٩٤٩ م) .

١ ـ شيزر :

تقع شيزر على مسافة خمسة عشر ميلا إلى الشمال من حماة فى مرتفع صخرى ، ويذكر المؤرخون أنها من مدن الشام القديمة ، ورد ذكرها بالهيروغليفية فى عهد تحتمس باسم «سنزار» ثم وردت فى نقوش « تل العمارنة » التى ترجع إلى عهد أمنحتب الثانى باسم «زنزارا» وسماها الأغريق «سدزارا» وعرفت عند البيزنطيين (الروم) باسم «سيزر» ، وفى القرن الرابع قبل الميلاد أسكنها سلوكوس الأول مهاجرين من «لارسا» فى «تساليا» وسماها «لارسا» من أجل ذلك ، غير أن اسمها السامى الأصل لم يلبث أن تغلب ، فظهر بصيغة «شيزر» التى عرف بها فى النصوص العربية ، وبهذه الصيغة وردت فى قول امرىء القيس :

تَقَطَّعُ أسبابُ اللُّبَانةِ والهوى عشيةَ رُحْنَا من حماةَ وشَيْزَرا

وفى قول عبيد الله بن قيس الرُّقيّات :

فَوَا حَزَنَا إذْ فارَقُونَا وجاوَرُوا سِوى قَوْمِهِمْ أعْلَى حَماةَ وشَيْزَرا

وفى سنة ١٧هـ. (=٦٣٨م) فتح المسلمون شيزر فيما فتحوا من مدن الشام عقب فتحهم حمص وحَماة بقيادة أبى عبيدة بن الجراح .

وقد سمّاها مؤرخو العرب حينا (عرف الديك) لما رأوها هضبة منتصبة على ضفة العاصى الغربية ، ولا تزال بقايا حصنها قائمة إلى اليوم معروفة باسم «سيجر» .

وكان مؤرخو الفرنج للحروب الصليبية يسمونها قيصرية «Caesarea» وربما قالوا قيصرية العاصى ؛ ليميزوها من قيصرية الروم .

ومنذ القدم حظيت شيزر بأهمية خاصة بسبب موقعها الجغرافى والعسكرى ؛ لأنها تقع على أحد طريقين يسلكهما عادة غزاة البلاد السورية ، فهى على الطريق التى سلكها نبوخذ نصر (بختنصّر) البابلى ، ورمسيس وتحتمس وغيرهم ، وهى الطريق التى آثرها أكثر الصليبيين فى غاراتهم على البلاد العربية ، ولا بد لمن يسلكها أن يجتاز أفامِيَةَ ، التى عرفت بقاعة المضيق ، ليصل بعدها إلى أختها «شَيْزَر» المسيطرة على وادى العاصى ، فهى إذن مفتاح سورية الداخلية ، وهذا ما جعلها مَطْمَح أبصار البيزنطيين دائما ، فغلبوا عليها مرارا ، واستخلصها العرب من أيديهم مرارا حتى اغتصبها الامبراطور باسيل الثانى سنة ٣٩٠هـ. (=٩٩٩م) فبقيت فى حوزة

الروم إلى سنة ٤٧٤هـ. (=١٠٨١م) حيث استطاع في هذه السنة سديد الملك أبو الحسن علي ابن مُقَلَّد بن نَصْر – جد أُسامة – أن يستخلصها من الروم في عهد كومنينوس ، وجعلها سديد الملك منذ ذلك الحين قاعدةً لإمارة شيزر ، وبذا عد مؤسس دولة بني منقذ التي قامت في الفترة بين سنتي ٤٧٤هـ. (=١٠٨١م) و ٥٥٢هـ. (= ١١٥٧ م) حين هدمها الزلزال المشهور ، وقتل تحت أنقاضها أكثر بني منقذ ، وتفرق بعده من بقي منهم بددا ، ثم جاء بعد ذلك في بقية سنة الزلزال السلطان نور الدين محمود بن زنكي ، فأخذها وعمرها .

ويذكر الأُستاذ طاهر النعساني ماضي شيزر وحاضرها فيقول :

« كانت على عهد بني منقذ عامرة بقُطّانها ومحصولاتها الزراعية ، وفواكهها الطيبة ، يخرج منها خمسة آلاف مقاتل ، وهي اليوم (سنة ١٩٢٩) لا يكاد يوجد بها خمسون مزارعا ، موبوءة مستوبلة ، أمراضها فتّاكة ، يضرب المثل بهوائها الفاسد ، فيقال : « أوخم من شيزر » ويقال : « تفعل كذا ، وتنال كذا وتقول شيزر وَخِمة[1] ؟! » .

ب ـ نسب أسامة :

هو أبو المظفر أُسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني ، الكلبي الشيزري ، الملقب مؤيد الدولة مجد الدين[2] .

هكذا ذكره ابن خلكان في وفيات الأعيان ، وفي معجم الأُدباء زاد ياقوت في سلسلة نسبه ، فارتفع بها إلى يعرب بن قحطان ، وعقب عليها بقوله : « هكذا ذكر هو نسبه ، وفيه اختلاف يسير عند ابن الكلبي » .

جـ ـ أسرته :

لا نكاد نعرف شيئا عن أجداد أُسامة قبل مخلص الدولة مُقَلَّد بن نصر بن منقذ الذي يذكر ابنُ خَلِّكان في ترجمته أنه « كان رجلا نبيل القدر ، سائرا الذكر ، رزق

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (ج ١٠/٢٣٠) .

(٢) أبو المظفر أشهر كنى أسامة ، وذكر ياقوت كنية أخرى له هي « أبو أسامة » وذكر النعيمي في الدارس في تاريخ المدارس أن كنيته أبو المظفر وأبو الحارث ، ووجد الشيخ أحمد شاكر في عنوان كتاب أسامة « البديع في نقد الشعر » كنية أخرى هي أبو الفوارس ، ومن ألقابه مجد الدولة ، ولقبه سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان (٨ ق ١/٢٤١) بمؤيد الدين ، ويشير فيليب حتى الى لقب آخر وجده في تاريخ بيروت / ٣٥ و ٣٦ هو « عز الدين » .

السعادة في بنيه وحفدته ، وكان ينزل فى جماعة كبيرة من أهل بيته مقيمين بالقرب من قلعة شيزر ، عند جسر بنى مُنْقِذ المنسوب إليهم ، وكانوا يترددون إلى حماة وحلب وتلك النواحى ، ولهم بها الدور النفيسة ، والأملاك المُثَمَّنة ، وذلك كله قبل أن يملكوا قلعة شيزر ، وكان ملوك الشام يكرمونهم ، ويُجِلُّون أقدارهم ، وشعراءُ عصرهم يقصدونهم ، ويمدحونهم ، وكان فيهم جماعة أعيان رؤساءُ أجلاء[1] » وذكر أن وفاته كانت سنة ٤٥٠هـ. (= ١٠٥٨م) وأورد مرثيَّة استجادها رثاهُ بها ابن أبى حصينة ، وكان ابنُ سنان الخفاجيِّ من الشعراءِ الذين مدحوه ، كما رثاه ورثى أخاه أبا الغيث منقذ بن نصر المتوفى سنة ٤٣٩ هـ. (= ١٠٤٧م) .

وكان مقلَّد هذا طموحًا فاستطاع أن يضم « كفر طاب » إلى الإقطاع الصغير الذى أقطعه صالح بن مرداس الكلابى صاحب حلب[2] الأُمراءَ المنقذيين قرب شيزر ، ولم يلبث أن بسط سلطته على وادى العاصى ، وبنى حصن الجسر قُبالةَ شَيْزر ؛ ليقطع عنها مدد الروم .

ولما خلفه ولده سديد الملك أبو الحسن على كانت قلعة شيزر بيد الروم ، فحدثته نفسه بأخذها ، فنازلها ، واستخلصها بالأمان بمال بذله للأسقف الذى كان بها[3] ، وذلك فى رجب سنة ٤٧٤هـ. (= ١٠٨١م) وجعلها قاعدة الإمارة التى أصبحت تضمُّ شَيْزَرَ ، وأفامِيةَ وكَفْرَ طاب ، واللَّاذقية ، وأصبح بذلك مؤسس دولة بنى منقذ بشيزر .

وقد أثنى عليه ابنُ خَلِّكان ، فذكر أنه كان مقصودا ، وخرج من بيته جماعة نجباءُ أُمراءُ ، وكان موصوفا بتمرة الفطنة ، ومدحه جماعة من الشعراءِ ، كابن الخَيَّاط ، وابن سِنان الخفاجى وغيرهما[4] .

وممن مدحه غير هذين من فحول الشعراءِ ابن حَيُّوس ، وقد أورد ياقوت مطلع قصيدة له مدحه بها ، وكان سديد الملك نفسه شاعرًا ، ذكر ابن خلكان من شعره بيتين استجادهما ، وأورد أُسامة فى هذا الكتاب طرفا من شعره .

---

(١) وفيات الأعيان ٤/٣٧٥ - ٣٦١ .

(٢) صالح بن مرداس الكلابى ملك حلب فى (١٣ من ذى الحجة سنه ٤١٧ هـ وقتل فى جمادى الأولى من سنة ٤١٩ ، أو ٤٢٠ هـ على ما يذكر ابن خلكان (الوفيات ٢/١٨٠) .

(٣) انظر الكامل لابن الأثير ١/٥٠٤ (ط باريس) وابن خلكان (وفيات الأعيان ٣/٨٦) . وفى مقدمة الاعتبار يذكر فيلب حتى أن شيزر كانت بيد الروم منذ غلب عليها الامبراطور باسيل الثانى سنة ٣٩٠ هـ (= ٩٩٩م) وبقيت فى حوزتهم الى عهد الامبراطور اليكسيس كومنينوس سنة ٤٧٤ هـ (= ١٠٨١ م) حين أخذها سديد الملك .

(٤) وفيات الأعيان (٣/٨٦) ومعجم الأدباء (٥/٢٢١) .

ولما توفي سديد الملك سنة ٤٧٥هـ. (= ١٠٨١م) خلفه ابنُه عزُّ الدولة أبو المرهف نصر بن علي بن مقلد، وهو عمُّ أسامة وكان شاعرًا، ذكر ياقوت شيئا من شعره، وأورد له أسامة في هذا الكتاب بعض مختارات، وكان مع كرمه [٢] معروفا بالورع والميل إلى السلام، وحين أدركته الوفاة بلا عقب سنة ٤٩٢هـ. (= ١٠٩٨م) كان قد عهد بالإمارة من بعده إلى أخيه الأمير أبي سلامة مُرْشِد بن علي بن مُقَلد - والد أسامة - وعمره حينذاك ثلاثون عاما.

ويبدو أن مُرشِدًا كان قد رسم حياته على نحو ارتضاه لم يشأ أن يغيره بتبعات الرئاسة وأعباء الملك، وقد أعطى أسامة صورة لحياة والده في الفصل الذي ختم به كتابه الاعتبار - والذي جعله في أخبار الصيد - وفيه يتحدث عن والده فيقول:

«كان رحمه الله مشغوفا بالصيد، لهجا به، وبجمع الجوارح، لا يستكثر ما يغرمه عليه لفرجته، فإنه كان نزهته، فليس له شغل سوى الحرب، وجهاد الإفرنج، ونَسْخِ كتاب الله عز وجل عند فراغه من أشغال أصحابه، وهو رحمه الله صائم الدهر، ومواظب على تلاوة القرآن، فكان الصيد له كما جاء في الخبر «رَوِّحُوا القلوب تَعِي الذِّكْرَ» وما رأيت قط. مثل صيده وترتيبه [٣]؛» ويقول في موضع آخر: «وذلك أن والدي - رحمه الله - كان قد فرغ زمانه لتلاوة القرآن والصيام والصيد في نهاره، وفي الليل ينسخ كتاب الله تعالى، فكان قد نسخ ستا وأربعين ختمة بخطه، منها ختمتان بالذهب [٤]».

ويذكر السَّمْعَانيّ في تاريخه أنه رأى مصحفا بخط والد أسامة، كتبه بماء الذهب على الطاق الصوري [٥] - يقول -: «ما رأيت ولا أظن أن الرائين رأوا مثله، فقد جمع إلى فضائله حسن خطه، وتقدم بحسن تدبيره على رهطه [٦]».

فلا عجب - وهذا شأنه - إذا رأيناه يرفض ولاية الإمارة، ويوليها أخاه الأصغر «ساطان» وهو يقول: «والله لا ولِيتُها، ولأَخْرُجَنّ من الدنيا كما دخلتها [٧]» كان ذلك زهدا منه فيها

---

(١) معجم الأدباء ٥/٢٣٨ و ٢٣٩.
(٢) انظر معجم الأدباء ٥/٢٤١ و ٢٤٢.
(٣) الاعتبار / ١٩١ و ١٩٢.
(٤) الاعتبار/١٩٩.
(٥) الطاق الصوري: نوع من الثياب منسوب الى مدينة صور.
(٦) نقل ياقوت عن السمعاني هذه العبارة في معجم الأدباء ٥/٢٢٦ و ٢٢٧ في تعريفه بوالد أسامة.
(٧) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ١/١١١ (ط مصر سنة ١٢٨٨ هـ).

لا عجزا عن النهوض بمهامِّها ، فقد كان شاعرا موصوفا بالشجاعة والكرم ، مقصدا للشعراء ، وقد بقى طوال حياته إلى جانب أخيه أبي العساكر سلطان بن على – الذى أصبح أميراً لشيزر – يعينه على النهوض بأعباء الإمارة التى تعرضت فى عهده لغارات متتابعة من بنى كلاب فى حلب ، ومن الاسماعيلية (الحشَّاشين) ومن الروم (البيزنطيين) ومن الفرنج (الصليبيين) ولكنها استعصت عليهم جميعا بفضل حصانة موقعها ، ومناعة حصونها ، وقوة دفاع الأُمراء المنقذيين عنها ، وكانت هذه الغارات – التى روى لنا أُسامة فى كتابه الاعتبار طرفا من معاركها – الميدان الذي تجلت فيه بطولة أُسامة وأخوته ووالدهم ، وبرزت فيها شخصيته الحربية ، وكانت مؤازرة والد أُسامة وأبنائه لأخيه أبي العساكر سلطان مما وَطَّد دعائم دولته ، وجعله يولي أخاه مرشدًا وأولاده عطفه وكرمه ، ويخص منهم أُسامة بكثير من وده ، ويعهد إليه بكثير من مهامه الخاصة ، وكأنه يهيئه ليخلفه من بعده .

ولكن أبا العساكر لم يكد يصبح له من أبنائه من يصلح للولاية من بعده حتى تغيَّرت نظرته إلى أخيه وأولاده ، ولا سيما أُسامة الذي كانت أخبار وقائعه وانتصاراته تكسبه صيتا ذائعا ، وتجعله منافسا خطيرا يخشى منه سلطان على مستقبل أبنائه ، وشعر أُسامة بغيرة عمه ، فغادر شيزر مؤقتا فى سنة ٥٢٤هـ. (=١١٢٩م) ، وأحس مرشد بتغير أخيه فأغضى عنه على قذى ، وأرسل شعره عاتبا عليه بمثل قوله[1] :

وقلتُ : أَخِي يَرْعَى بَنِيَّ وأُسْرَتِي ... ويَحْفَظُ فِيهِمْ عُهْدَتِي وذِمامِيا
ويَكْفِيهِمُ ما لَمْ أُكَلِّفْه فِعلَه ... لنَفْسِي فقَدْ أَعْدَدْتُه من تُراثِيا
فأَصْبَحْتُ صِفْرَ الكفِّ مما رَجَوْتُه ... أَرى اليأْسَ قد غَطَّى سَبِيلَ رجائيا
فمالَكَ لما أَنْ حَنَى الدهرُ صَعْدَتِي ... وثَلَّمَ مِنِّي صارِمًا كان ماضِيا
تَنَكَّرْتَ حتى صارَ بِرُّكَ قَسْوةً ... وقُرْبُكَ منهم جَفْوةً وتَنائِيا

ولم يلبث مرشد ، والد أُسامة بعد ذلك طويلا ، فقد مات سنة ٥٣١هـ. (١١٣٦م) وغادر أولاده – كما أراد عمهم أبو العساكر سلطان – شَيْزَر إلى غير رجعة ، وكان هذا من لطف الله بهم ، فنجوا من الموت الذى أدرك أهلهم جميعا فى كارثة الزلزال سنة ٥٥٢هـ. (=١١٥٧م) .

---

(١) القصيدة التى منها هذه الأبيات مطلعها :

ظلومُ أَبَتْ فى الظُّلْمِ الاّ التّماديا ... وفى الصَّدِّ والهِجْرانِ الا تَناهَيا

وقد أورد ياقوت فى معجم الادباء (٥/٢٢٨ – ٢٣٠) قطعة كبيرة منها .

وحين توفي أبو العساكر سلطان سنة ٥٤٩هـ. (= ١١٥٤م) خلفه ابنه تاج الدولة ناصر الدين محمد آخر أُمراءِ شيزر من بنى منقذ ، وفي عهده وقع الزلزال المُدَمِّر الذى هدم من مدن الشام حلب وحماة وحمص وأفامية والمعرة وكفر طاب ، وأنطاكِيَةَ وطرابلس وأصاب دمشق أيضا ، وتداعت فيه قلعة شيزر على أميرها ناصر الدين محمد وأُسرته الأُمراءِ ، ولم ينج منهم سوى زوجة الأمير التى استنقذت من تحت الردم[١] ، وشغرت شيزر بعد ذلك ، فجاءَ نور الدين محمود بن زنكى في بقية السنة فأخذها وعمرها .

هؤلاءِ هم أُمراءُ بنى منقذ الذين تعاقبوا على ملك شيزر ، نلتقى فى المراجع التاريخية والأدبية بعدد آخر منهم عاشوا بعيدين عن شيزر ، ولكنهم لم يبعدوا عن السيادة ونباهة الذكر أينما كانوا ، من هؤلاءِ :

أبو الغيث منقذ بن نصر بن منقذ الكنانى ، أخو مخلص الدولة مقلد بن نصر بن منقذ ، ذكره ابن خلكان فى ترجمة أخيه مقلد بن نصر[٢] ، وذكر أن وفاته كانت سنة ٤٣٩هـ. (= ١٠٤٧م) ورثاه ابن سِنان الخفاجى بقصيدة منها :

غَرَبَتْ خَلائِقُك الحِسانُ غَرِيبَةً ورَمَى الزمان دُنُوَّها ببعاد

ذَهَبَتْ كما ذَهَبَ الربيعُ وخَلَّفَتْ فَيْضَ الدموعِ حَرارةُ الأَكبادِ

وأبو المتوَّج الملقب بتاج[٣] الأُمراءِ مقلد بن على ، وهو عم أُسامة ، أقام بمصر مكرما . وناصر الدوله كامل بن مقلّد بن على بن مقلد بن نصر ، وهو ابن تاج الأُمراءِ المقدم ذكره .

ومنهم أبو الميمون المبارك بن كامل[٤] بن مقلّد بن على الملقب سيف الدولة مجد الدين كان من أُمراءِ الدولة الصلاحية ، وُلِّى شاد الديوان بالديار المصرية ، ووجّهه صلاح الدين مع أخيه شمس الدولة تُوران شاه إلى بلاد اليمن فى سنة ٥٦٩هـ. (= ١١٧٣م) فلما ملكها توران شاه

---

(١) أنظر مرآة الزمان ج ٨ق ١/٢٢٨ و ٢٢٩ ووفيات الأعيان ٣/٨٦ ومقدمة الاعتبار ص/ذ

(٢) وفيات الأعيان ٤/٣٦٠ .

(٣) معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى لزامباور (١/١٦٥) .

(٤) انظر فى ترجمة المبارك بن كامل وفيات الأعيان ٣/٢٩١ وتاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن (٧٥ ـ ٧٧) .

أناب عنه سيف الدولة المبارك بن كامل هذا فى زبيد ، فبقى بها إلى سنة ٥٧٧هـ (=١١٨١م) ثم مرض وكره المقام باليمن ، فعاد إلى مصر ، وتوفى بالقاهرة فى سنة ٥٨٩هـ (=١١٩٣م) وكان مولده بقلعة شَيْزر سنة ٥٢٦هـ (=١١٣٠م) .

وقد مدحه جماعة من مشاهير الشعراء ، وكان شاعرا ، أورد ابن خلكان من شعره قوله في البراغيث — وقد آذته أثناء حجّه — :

ومَعْشَر يَسْتَحِلُّ الناسُ قَتْلَهُم كما استَحَلُّوا دَمَ الحُجَّاج في الحَرَمِ

إذا سَفَكْتُ دَمًا منها فما سَفَكَتْ يداىَ من دَمِها المسفوكِ غيرَ دمِي

وكان حين عودته من اليمن قد أناب عنه أخاه حطان[1] بن كامل الذى استقل بزبيد ، فسار إليه سيف الاسلام طغتكين بن أيوب فقبض عليه ، واستصفى ماله ، وقتله في سنة ٥٧٩هـ (١١٨٣م) .

ومنهم أبو الحسن على[2] بن مرشد أخو أسامة ، ذكره ياقوت في معجم الأُدباء ، ووصفه بأنه سيد بنى منقذ ، واستجاد شعره ، وأورد نماذج مما أنشده السَّمْعَانِىّ له فى تاريخه ، وأخرى مما رواه لياقوت مرهف بن أسامة من شعر عمه أبى الحسن هذا ، وقد أورد له أسامة فى هذا الكتاب أشعارًا كثيرة ، ونقل ياقوت أنه استُشْهِد على غزه فى شهر رمضان سنة ٥٤٥هـ (=١١٥٠م) فى حرب الصليبيين ، ومما أورده ياقوت من شعره قوله يحن إلى أهله :

بَنِى أَبِى إن عَدا دَهْرٌ فَفَرَّقَنا فهَمُّ نَفْسِى بِكُمْ ماعِشْتُ مُجْتَمِعُ

هل تَعْلَمُون الذى فِى النفْسِ من أسفٍ عليكُمُ وحَنِين ليس يَنْقَطِعُ

نَزَحْتُمُ أدْمُعِى حتى لقَدْ مَحَلَتْ جُفُونُ عيْنِى وماتَ اليَأْسُ والطمَعُ

ومنهم نجم الدولة أبو عبد الله محمد بن مرشد أخو أسامة أيضا ، ذكره السَّمْعانى فى تاريخه وروى عنه شعرًا لأبيه مرشد أنشده أياه عند عقبة أفيق بنواحى الأُرْدُنّ[3] .

---

(1) ورد اسمه فى وفيات الاعيان ٣/٢٩١ حطان ، وفى تاريخ اليمن /٧٧ و ٧٨ يذكره باسم « خطاب » .

(2) انظر فى ترجمته معجم الأدباء ٥/٢١٤ — ٢٢٠ .

(3) معجم الأدباء ٥/١٩٣ .

ومنهم شرف الدين أبو الفضل إسماعيل بن أبي العساكر سلطان بن علي ، وهو ابن عم أسامة سكن دمشق – بعد أن زالت شيزر عنهم – وبقي بها إلى أن مات سنة ٥٦١هـ. (=١١٦٥م) ذكر ياقوت له شعرا جيدا منه قوله في الغزل :

بأيِّ أَمْرٍ سأنجو من هوى رَشَإٍ في جفنه سحر هارُوتٍ وسيفُ عَلي
إذا رَمَى طَرْفُه باللَّحْظِ قالَ لَه قَلْبى : أَعِذْ «لا رَماك اللهُ بالشَّلَلِ»

ومنهم أبو الفتح يحيى بن سلطان ، أخو المقدم ذكره ، قال ياقوت – نقلا عن مرهف بن أسامة – أنه قتل على بعلبك في سنة ٥٤٠هـ. (=١١٤٥م) وأورد أبياتا من شعره .

ومنهم الأمراء بنو أسامة بن منقذ : عز الدولة أبو الحسن بن أسامة ، وبهاء الدولة أبو الغيث منقذ ، ونجم الدولة أبو عبد الله محمد ، وابنه أبو الحارث عبد الرحمن بن محمد بن أسامة ابن منقذ الذى بعثه صلاح الدين إلى المغرب وتوفى بها سنة ٥٩٩هـ. (=١٢٠٢م) .

وآخر من بقي من أبناء أسامة الأمير عضد الدولة أبو الفوارس مرهف الذى أقام بمصر مُوَقَّرًا في الدولة الأيوبية ، وحظى بمودة صلاح الدين ، حتى «صار جليسه ، ونديمه وأنيسه»[1] ، ولقيه ياقوت في سنة ٦١٢هـ. (=١٢١٥م) وكان قد جاوز التسعين من عمره ، وأقعدته السن ، ووصفه بأنه «شيخ ظريف واسع الخلق ، شائع الكرم ، جمّاعه للكتب[2]» وروى عنه في معجم الأدباء كثيرا من شعر أهله ، وكانت وفاته سنة ٦١٣هـ. (=١٢١٦م) ومولده سنة ٥٢٠هـ. (=١١٢٦م) وقد أورد شيئا من شعره .

ويذكر ياقوت منهم غير هؤلاء : حميد بن مالك بن مغيث بن نصر بن منقذ ، أبا الغنائم مكين الدولة ، المولود في شيزر سنة ٤٩١هـ. (=١٠٩٧م) والمتوفى بحلب سنة ٥٦٤هـ. (=١١٦٨م) ووصف شعره بالجودة ، وذكر منه قوله :

ما بَعْدَ جِلِّقَ للمُرْتادِ مَنْزِلَةٌ ولا كسُكَّانِها في الأَرْضِ سكَّانُ
فَكُلُّها لمَجالِ الطَّرْفِ مُنْتَزَهٌ وكُلُّهُم بصُرُوفِ الدهرِ أقْرانُ
وهُمْ وإن بَعُدوا عنى بنِسبَتِهم إذا بَلَوْتُهُم بالوُدِّ إخوانُ

(١) معجم الأدباء ٥/١٩٣ . (٢) معجم الأدباء ٥/٢٤٣ .

ولا تتسع هذه العُجالة لكل ما يمكن أن يقال عن بنى منقذ أسرة أسامة ، غير أنه يتضح لنا مما سبق أنهم كانوا جميعا سادة أجواداً ، وفرساناً شعراء ، كان الشعر فيهم سليقة رجالا ونساء ، ومن طريف ما يرويه ياقوت عن أسامة بن منقذ أن عمه أبا المرهف نصر كان قد أخرج من ماله حجَّة عن والدته التى ماتت ، فرآها فى نومه ـ وقد حمدت بره بها ـ تنشده هذه الأبيات التى استيقظ. وهو يحفظها كما أنشدَتْها :

جُزيتَ من وَلَدٍ بَرٍّ بصالِحَةٍ ... فقَدْ كَسَبْت ثوابًا آخِرَ الزَّمَنِ
وقد حَجَجْت إلى البَيْتِ الحَرامِ وقد ... أَتَيْتُه زائِرًا يا خَيْرَ مُحْتَضَن
فلا تَنَلْك يَدُ الأيام ما طَلَعَت ... شمسٌ ، وماصَدَحَتْ ورقاءُ فى فَنَن

د ـ مولده ونشأته .

ولد أسامة بن منقذ[1] بشيزر في يوم الأحد الموافق ٢٧ من جمادي الآخرة سنة ٤٨٨هـ. (يولية سنة ١٠٩٥ م) فى أسرة مجيدة ، أسست إمارة شيزر ، وتوارثت ملكها ، أكثر رجالها فرسان محاربون من الطبقة الأولى ، وحين بلغ الثانية من عمره كانت الحروب الصليبية قد بدأت فى بلاد الشام سنة ٤٩٠هـ. (= ١٠٩٧م) ففتح عينيه على معاركها ، وبلاءِ أبطال أسرته فيها ، فلا عجب أن رباه والده على الشجاعة والفتوة والرجوله ، واصطحبه معه إلى الصيد ، وحمله على ركوب الأخطار ليجعل منه فارسا كاملا ، وفي هذا يقول أسامة : « .. ما رأيت الوالد رحمه الله نهانى عن قتال ولا ركوب خطر مع ما كان يرى فىّ وأرى من إشفاقه علىّ وإيثاره لى[2] » ويذكر أنه رأى وهو صغير حية على حائط الدار فتسلق إليها ، وأخذ يَحُزُّ رأسها بسكينه الصغير ، وهى تلتف على يده ، وأبوه يراه ولا ينهاه[2] .

كذلك يروى لنا أسامة حادثة وقعت لأُمِّه حين هاجم الإسماعيلية (الحشاشون) شَيْزر ، والرجال غائبون عنها ، فوزعت أُمُّ أسامة السلاح ، «وألبست ابنتها الخف والإزار وأجلستها على رَوْشَن[3] مشرف على الوادى ، حتى إذا ما انتهى الأعداءُ إليها تدفعها وترميها إلى الوادى ، فتراها

---

(١) هكذا اشتهرت نسبة أسامة الى جده الأعلى منقذ ، وقد تقدم فى سلسلة نسبه أنه أسامة ابن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ .

(٢) الاعتبار/١٠٣ فى الموضعين .

(٣) الروشن : أصله الكوة ، ثم اطلق على الرف والشرفة .

ميتة ولا أسيرة في أيدى الفلاجين والحلاجين »[1] ومن هذه الواقعة نتبين المعدن الذى جبلت منه هذه الأُم الجديرة بأن تكون أم أسامة البطل .

هذه هى البيئة التى نشأ فيها أُسامة على الفروسية ، وغذي فيها بلبان الشجاعة ، فصلب عوده وهو مرن ، وألف اقتحام المخاطر وهو صغير ، وكانت الأحداث من حوله تشده إلى هذا اللون من حياة الفتوة والخشونة ، فالروم يتهددون أطراف بلاده ، والصليبيون غاراتهم متلاحقة على بيت المقدس وبلاد الشام ، ومن دون هذين كان بنو كلاب والإسماعيلية (الحشاشون) يُغيرون على شَيْزر ، وكان ما حول شيزر من أماكن يقصدها أُسامة للصيد مليئا بالوحوش الضارية والحيوانات المفترسة مما جعل أُسامة لا يخرج للصيد إلا وهو مسلح[2] .

وإذا كان الذهبى[3] يسميه أحد أبطال الاسلام فإن ذلك اعتراف بالحقيقة من غير مبالغة ، وأُسامة نفسه يقول – حين أقعده الكبر – : «حضرت من المصافات والوقعات مهول أخطارها ، واصطليت من سعير نارها ، وباشرت الحرب وأنا ابن خمس عشرة سنة إلى أن بلغت التسعين ، وصرت من الخوالف ، خَدِين المنزل ، وعن الحروب بمعزل ، لا أُعدّ لمُهِمٍّ ، ولا أدعى لدفع مُلِمّ ، بعد ما كنت أول من تُثْنَى عليه الخناصر ، وأكبر العُدَد لدفع الكبائر[4] » . وكانت أول حملة قادها سنة ٥١٣هـ. (=١١١٩م) حين سيره والده إلى أفامية ، لقتال الفرنج المخيِّمين بها ، وكان النصر حليفه ، ولم يكن جهاده الفرنج (الصليبيين) قاصرا على قتالهم فى حماة وشيزر وأفامية ، وغيرها من مدن سورية الشمالية ، بل حاربهم في فلسطين ، فنازلهم في عَسْقَلان[5] أربعة أشهر ، وقاتلهم فى بيت جبريل[6] ، وفى يبنى[7] ، كما شهد القتال أيضا

---

(١) الاعتبار/١٤٥ وهى اللسان الفلوجة : الأرض الطيبة البيضاء المستخرجة للزراعة، وفلاليج السواد : قراها ، فلعل أسامه عنى بالفلاجين القرويين الفلاحين ، والحلاج : الذى يحلج القطن، أى يندفه ويخلصه من بزره .

(٢) الاعتبار /٢٠٠ .

(٣) دول الاسلام ٢/٧١ (ط حيدر أباد ١٣٣٧ هـ) .

(٤) مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ج ١٠/٢٣٠ وما بعدها .

(٥) عسقلان : على ساحل البحر بين غزة وبيت جبريل ، وكان ذلك فى سنة ٥٤٨ هـ وقد استولى الصليبيون عليها فى هذه السنة بعد قتال شديد .

(٦) بيت جبريل : بليدة بين بيت المقدس وغزة ، وبينها وبين عسقلان واد يزعمون أنه وادى النمل .

(٧) يبنى : بلدة قرب الرملة .

فى ديار بكر والموصل وغيرها ، وقد أفادته تجاربه الحربية الكثيرة إيمانا عميقا بأن الموت لا يقدمه ركوب الخطر ، ولا تؤخره شدة الحذر[١] ، كما عودته الصبر والرضا بالقدر ، وصار يستقبل الأفراح كما يودع الأحزان ، ويواجه النصر والظفر بالروح العالية التى يجابه بها الهزيمة والفشل ، لأنه يؤمن أن كل ذلك بقدر من الله[٢] .

وحين تقدمت به السن ، وسئم تكاليف الحياة كان يذكر وقائعه ، ويتمنى او أن الموت كان قد وافاه في إحداها ، فنال شرف الشهادة ، ويرى فى ذلك عبرة لكل جبان يقعد عن الجهاد حذر الموت ، وفى ذلك يقول ـ بعد أن حكى بعض ما لقى من أهوال ـ : «فهذه نكبات تزعزع الجبال وتفنى الأموال ، والله سبحانه يعوض برحمته ، ويختم بلطفه ومغفرته ، وتلك وقعات كبار شهدتها ، ونكبات نكبتها ، سلمت فيها النفس لتوقيت الآجال ، وأجحفت بهلاك المال[٣]» ويقول أيضا : «فلا يظن ظانّ أن الموت يقدمه ركوب الخطر ، أو تؤخره شدة الحذر ، ففى بقائى أكبر معتبر ، فكم لقيت من الأهوال ، وتقحّمت المخاوف والأخطار ، ولاقيت الفرسان ، وقتلت الأسود ، وضُربت بالسيوف ، وطُعنت بالرماح ، وجُرحت بالسهام والجروخ[٤] وأنا من الأجل في حصن حصين ـ إلى أن بلغت تمام التسعين» ثم يورد بعد ذلك أبياتا تصور ضعفه وأثر الشيخوخة فى بدنه يختمها بقوله :

فاعجَبْ لضعف يَدِى عن حَمْلِها قَلَماً ... من بَعْدِ حَطْمِ القَنا فِي لبَّةِ الأَسدِ
وإن مَشَيْتُ وفى كَفِى العَصا ثَقُلَتْ ... رِجْلِى ، كأَنَّى أَخُوضُ الوَحْلَ فى الجَلَدِ
فقُلْ لمن يَتَمنَّى طُولَ مُدَّتِه ... هذى عَواقِبُ طُولِ العُمْرِ والمُدَدِ[٥]

وكتاب الاعتبار الذي ألفه أسامة بعد أن بلغ التسعين يُعَدّ ترجمة لحياته كتبها

---

(١) الاعتبار/١٦٣ .
(٢) أنظر الاعتبار/١٤٧ .
(٣) الاعتبار/٣٨ .
(٤) من أدوات الحرب ترمى عنها السهام والحجارة ، والكلمة معربة .
(٥) الاعتبار/١٦٣ و ١٦٤ .

بقلمه على نحو ما نسميه اليوم تراجم ذاتية[1] ، صوّر فيه بأُسلوب لا تكلف فيه ما وقع له فى جد الأُمور ولهوها ، وألقى به ضوءًا ساطعا على أحداث عصره وحياة الناس فى مجتمعه ، ولو بلغنا هذا الكتاب كاملا لأفاد الدارسون منه كثيرا فى الكشف عن جوانب من حياة أُسامة ، والواضح منه أنه كان يهدف إلى تأسّى غيره به ، وأخذ العبرة من حياته .

ويذكر أُسامة ذلك بعبارة مجملة - فى كتابه الآخر لباب الآداب - فيقول : «وقد أوردت فى كتابي المترجم « بكتاب الاعتبار » عجائب ما باشرته ، وحضرته ، وشهدته من الحروب والمصافّات منذ كنت ابن خمس عشرة سنة إلى أن تجاوزت التسعين ، وما نالنى فيها من الجراح والمكاره ، وأنا القائل :

أَلُوم الرَّدَى كَمْ خُضْتُه مُتَعَرِّضاً ... له وهو عَنّى مُعْرِضٌ متجنِّبُ
وكم أَخَذَتْ منى السيوفُ مآخذ الْـ ... ـحِمام ولكِنَّ القضاءَ مُغَيَّبُ
إلى أَن تَجاوَزْتُ الثمانِينَ وانقضت ... بُلَهْنِيَةُ العيشِ الذى فيه يُرْغَبُ
فمَكْرُوه ماتَخْشَى النفوسُ من الرَّدَى ... أَلَذُّ وأَحْلَى مِنْ حياتِى وأَطْيَبُ

وذكرت ما شاهدته من إقدام الرجال ، وعجائب تَصرُّف الآجال ، فغنيت بما أوردته هناك عن الإطالة هنا[2] » فإذا أحلنا القارىء على كتاب الاعتبار فإننا نجمعه بأُسامة نفسه ، ليحدثه عن البطولة العربية التى جعلت ابن الأثير يصفه بأنه «كان من الشجاعة فى الغاية التى لامزيد عليها » .

هـ - حياته الحربية :

وحسبنا هنا أن نتابع - فى إيجاز - خطوات الزمن فى حياة أُسامة ، لنراه يغادر شيزر

---

(١) يرى فيليب حتى أن كتاب الاعتبار أول سيرة ذاتية فى الأدب العربى ، وقد وجدنا أن ابن خلدون فعل ذلك حين كتب فى آخر تاريخه فصلا عرف فيه بنفسه فذكر أصله ونشأته وترجم لمن تعلم عليهم أو تلقى عنهم ، وعرف بالحكام والسلاطين الذين عمل معهم ، كما تحدث عن الصلات التى كانت بينه وبين غيره من العلماء والوزراء ، والرحلات التى رحلها ، وأثر كل ذلك فى نفسه وثقافته ، ثم أضاف اليه اضافات أخرى اقتضتها رحلاته حتى صار كتابا مستقلا أطلق عليه «التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا» وقد حققه وعلق عليه محمد بن تويت الطنجى وطبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر . وقريب من ذلك كتاب للسيوطى عنوانه « التحدث بنعمة الله » وكتاب آخر للامام الشعرانى يحمل العنوان نفسه ، وفى العنوان تيمن بقوله تعالى « وأما بنعمة ربك فحدث » ولئلا يظن القارىء بصاحبه الفخر أو المباهاة .

(٢) لباب الآداب/٢٢٦ .

فى سنة ٥٢٩هـ. حين أصبح عمه سلطان ـ أمير شيزر حينذاك ـ لا يريه من العطف ما كان يعهده ، بل إن أسامة أحس أن عمه يحقد عليه ، ويخشى على أولاده من مكانته ، ويمضى أسامة إلى الموصل ؛ لينتظم فى جند عماد الدين زنكى الذى صار أكبر أبطال الحروب الصليبية فى وقته ، ويخوض أسامة تحت قيادته معارك كثيرة .

ويهاجم الفرنجُ والروم شَيْزَرَ فى سنة ٥٣٣هـ . فيمضى أسامة إليها ، ويبلى بلاءً حسنا فى الدفاع عنها ، لعل ذلك يعطف قلب عمه عليه ليبقى بشيزر بين أهله الذين كانوا قد فقدوا والده سنة ٥٣١هـ ، غير أن انتصارات أسامة التى أصبحت حديث الناس جعلت عَمَّه يوقن أنه أصبح خطرا على ملكه ، وعلى مستقبل بنيه من بعده ؛ ومن ثَمَّ يأمره هو وأخوته بالرحيل عن شيزر ، فيخرج أسامة بهم إلى دِمَشْق وهو ينشد :

دَعْنِى وقَطْعَ الأَرضِ دون مَعاشرٍ ... كلٌّ علىّ ـ لغير جُرْمٍ ـ مُحْنَقُ[1]

تغلى علىّ صُدورُهم من غيظِهِم ... فتكادُ من غَيْظٍ على تَحَرّقُ

أعيا علىّ رضاهمُ فيئست من ... إدراكه ، ما النجمُ شئ يُلْحَقُ

قد أفْسَدوا عيشى علىّ ، وعيشَهم ... فأنا الشقىُّ بهم ، وبى أيضا شَقُوا

فَضْلُ الأقاربِ برُّهم وحُنُوُّهم ... فإذا جَفَوْنِى فالأباعدُ أرْفَقُ

وفي دمشق اتصل بصديقه معين الدين أنَر ، وزير شهاب الدين محمود ، فاعتمد معين الدين على أسامة في تصريف الشئون السياسية ، ونجح أسامة فى هذه المهمة نجاحا رفع مكانته فى دمشق ، وجعله يعيش مُكَرَّما فى رعاية معين الدين أنَر أكثر من سبع سنوات ، غير أن أمثال أسامة لايعدمون حسّادا يكيدون لهم ، فسرعان ما سعى به الواشون إلى معين الدين الذى صدقهم فانحرف قلبه عن أسامة ، فنبت به دمشق « نُبُوَّ الداربالكريم » كما يقول العماد الأصفهانى .

ويرحل أسامة إلى مصر ، وهو يودع معين الدين بقصيدة عاتبة ، ننقل منها قوله :

---

(١) ديوان أسامة/١٢٧ و ١٢٨ .

بلِّغْ أَمِيرِى مُعينَ الدين مَأْلُكَةً من نازح الدار لكن وُدُّهُ أَمَمُ[١]
هل فى القضية يا من فضل دولته وَعدلُ سيرته بين الورى عَلَمُ
تَضْيِيعُ واجِبِ حَتِّى بعد ما شَهِدت به النصيحةُ والإخلاصُ والخِدَمُ
وما ظننتُك تنسى حقَّ معرفتى «إن المعارفَ فِى أَهْلِ النُّهَى ذِمَمُ»
ولا أَعتَقَدْتُ الذي بيني وبينَك من وُدٍّ ـ وإن أَجْلَبَ الأَعداءُ ـ ينصَرِمُ
لكن ثِقاتُك مازالوا بِغِشِّهِمُ «حتى اسْتَوَتْ عِنْدَكَ الأَنوارُ والظُّلَمُ»

وهى قصيدة طويلة ، نحس فيها بنفس أسامة تفيض بالحب والإخلاص لمُعين الدين ، مما جعله يختمها بالدعاء له قائلا :

فاسْلَمْ ، فما عِشْتَ لى فالدَّهْرُ طَوْع يَدِى وكُلُّ ما نالَنى من بُؤْسِهِ نِعَمُ

وصل أُسامة إلى القاهرة ، وهو يحكى ذلك فى كتابه الاعتبار فيقول : « كان وصولي إلى مصر يوم الخميس الثانى من جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمسمائة (نوفمبر سنة ١١٤٤م) فأَقرَّنى الحافظ لدين الله ساعة وصولى ، فخلع علىّ بين يديه ، ودفع لى تخت ثياب ، ومائة دينار ، وخَوَّلَنى دخول الحمام ، وأنزلنى فى دار من دور الأَفضل ابن أمير الجيوش فى غاية الحسن وفيها بسطها وفرشها ، ومرتبة كبيرة وآلتها[٢] من النحاس ، كل ذلك لا يستعاد منه شيء ، وأقمت بها مدة ، إقامة فى إكرام واحترام وإنعام متواصل[٣] » .

ولما مات الخليفة الحافظ ، وولى ابنُه الظافر بأَمر الله أَبو منصور إسماعيل ، وثب على الوزارة سيف الدين أَبو الحسن على بن السلار الملقب بالملك العادل ، وقد رأى هذا الوزير أن يبعث أُسامة فى مهمة سياسية وحربية لدى نور الدين بن زنكى ، مؤداها أن يطلب إليه منازلة الفرنج

---

(١) من قصيدة فى ديوانه/١٤٦ و ١٤٧ وكأنها معارضة لقصيدة المتنبى التى ودع بها سيف الدولة عاتبا حين عزم أن يتحول عنه الى كافور ، ويرحل من حلب الى مصر ، وما أشبه الحال بالحال ، ومطلع قصيدة المتنبى :

واحَرَّ قَلْباهُ ممّن قَلْبُه شَبِمُ وَمَن بِحالِى وجِسْمِى عِنْدَه السَّقَمُ

ومع تشابه المعانى فى القصيدتين فقد ضمن أسامة فى قصيدته كثيرا من أبيات المتنبى .
(٢) يعنى بآلة المرتبه السرير الذى توضع عليه .
(٣) الاعتبار/٦ .

في طَبَرِيَّة ، ليشغلهم عن المصريين الذين يستعدون لمهاجمة الفرنج فى غزة ، وكان هؤلاء « قد شرعوا فى عمارة غزة ليحاصروا عسقلان[1] » .

وعند بُصْرَى يلتقى بنور الدين بن زَنْكِى ، فيُفْضِى إليه بما كُلِّف به ، ولكن نور الدين يعتذر إليه عن عدم استطاعته ذلك ، لأن مركزه الحربى لم يكن يسمح له حينئذ ، وبدلا من أن يعود أُسامة ليؤدى جواب رسالته نراه يقود جماعة من الفرسان[2] ، يتجه بهم إلى عَسْقلان ، وتدور بينه وبين الصليبيين عندها معارك عظيمة يظهر فيها بطولة نادرة .

وفي أثناء هذه المعارك يصله كتاب من ابن السلار يستدعيه إلى مصر ، فيعود إليها تاركا أخاه عز الدين أبا الحسن عليًّا مكانه فى منازلة عسقلان ، وظل عز الدولة فى حرب الفرنج بها إلى أن استشهد ، وكان كما وصفه أُسامة من علماء المسلمين وفرسانهم وعُبّادهم .

عاد أُسامة إلى مصر ليشهد سنوات خمس (٥٤٤هـ - ٥٤٩هـ) عاشتها البلاد فى اضطراب سياسى ، وفوضى شاملة ، انعدم فيها الأمن ، وكثرت[1] الفتن ، فالخليفة يكيد لوزرائه ويغتالهم ،

---

(١) الاعتبار/١٠ .

(٢) يذكر الأستاذ طاهر النعسانى (مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ١٠/٢٣٠) أن نور الدين محمود بن زنكى هو الذى سير أسامة لمحاربة الصليبيين فى عسقلان ، فسار اليها فى ٨٦٠ فارسا ، وأقام ينازلهم أربعة أشهر .

(٣) كان من نتيجة هذه الفتن أن قتل الخليفة الظافر ، والوزير ابن السلار ، وقد اتهم بعض المؤرخين أسامة بأن له يدا فى قتلهما ، والتحريض على هذه الجرائم المنكرة ، وقد برأه الله من أن يغمس يده فى الدماء البريئة .

ويرى المرحوم الشيخ أحمد شاكر فى مقدمة لباب الآداب/٢٣ :

« ان أسامة انما اتهم بذلك افتراء واتباعا للشائعات التى أشاعها ذوو الأغراض من الدساسين ، والقارىء المنصف لما كتبه أسامة فى (الاعتبار) عن هذه الحوادث يتبين براءته مما نسب اليه زورا وبهتانا » .

ونضيف الى ذلك أن هذه التهمة لو كانت صحيحة لما وجدنا الملك الصالح طلائع بن رزيك يحسن الى أسرة أسامة بعد رحيله ، وينزلها فى دار خاصة ، ويجرى عليها ما تحتاجه ، بل ان رسائل ابن رزيك تترى على أسامة يلح عليه فيها بالعودة الى مصر ، ويعده باقطاعه أسوان ، وامداده بما يتقوى به على محاربه الحبشة ، ويبعث اليه بقصيدة طويلة يحدثه فيها عن الوزير عباس الذى كان من وراء هذه الفتن فيقول :

عَلَىَ أَنَّه قد نالَ بالغَدْرِ من بَنِى ... نَبِىِّ الهُدَى مالم يَنَلْهُ بَنُو حرْبِ

وحاشاكُم ما خُنْتُم العَهْدَ مثله ... ولا لكم فيما جَرَى منه مِنْ ذَنْبِ

ومِنْ مِثْل ما قد نالَكُم من دُنُوِّه ... تُحاذِرُ أَن تَدْنُو الصحاحُ من الجُرْبِ

وانظر فى تحرير ذلك الكامل لابن الأثير ١١/٧٥ و ٧٨ وتاريخ أبى الفدا (٣/٢٧ و ٢٨) والنجوم الزاهرة (٥/٢٨٨ - ٢٨٩ و ٢٩٣ و ٣٠٩) وخطط المقريزى (٣/٤٦ - ٤٨) .

والوزراءُ يتآمرون على حياة الخليفة ، والصليبيون يهددون بغزو البلاد ، ويحكى أسامة أحداث هذه الفترة فى كتابه الاعتبار [1] ، ويذكر ما قاسى فيها من شدائد وأهوال كادت تقضى على حياته ، فقد نهبت داره ، وأُصيب بجرح فى رأسه حينما هم بمغادرة مصر ، فلقيه عند باب النصر بعض قبائل العرب ، ودار بينه وبينهم قتال شديد ، ثم سار حتى وصل بِلْبِيس ، ورأى أنه عاجز عن حمل أُسرته معه ، فردها إلى القاهرة ، فأكرم الملك الصالح طلائع بن رُزِّيك مثواها ، وكانت هذه مَكْرُمة عرفها أُسامة لابن رُزِّيك ، وظل يمدحه فى شعره ، ويشيد بجوده وكرمه .

وفى طريقه إلى دمشق لقى صعابا جمة كادت تقضى عليه ، فقد تعرض لقُطَّاع الطريق من الأعراب ، كما تعرض لسرايا الصليبيين التى كانت منبثَّة فى جنوبى فلسطين ، ويبدو أن ما صادفه من ذلك كان شيئا كثيرا حتى أنه جعل «السلامة من تلك الطريق من دلائل قدرة الله وحسن دفاعه »[2] .

وصل أُسامة إلى دمشق فى يوم الجمعة خامس ربيع الثانى سنة ٤٤٩هـ.(=١١٥٤م) فقربه منه نور الدين محمود بن زنكى وأحسن إليه ، ولكن طلائع بن رُزِّيك لا يفتأُ يغريه بالعودة إلى مصر ، ويعرض أُسامة الأمر على نور الدين محمود ، فينصحه ألا يغادر الشام ، ويعده أن يأُخذ لأهله الأمان من الصليبيين ، وينفذ إليهم من يصحبهم من مصر إلى دمشق . ويفى نور الدين محمود بوعده ، ولكن الصليبيين لا يرقبون فى مؤمن إلاًّ ولا ذمة ، فقد غدروا بالأمان ، وهاجموا السفينة التى كانت تُقِلُّ أُسرة أُسامة ، ونهبوا ما فيها ، ويذكر أُسامة ذلك فى كتابه الاعتبار فيقول : «وقد كان فى المركب حلى أودعه النساء ، وكسوات وجوهر وسيوف وسلاح وذهب وفضة بنحو من ثلاثين ألف دينار ، فأخذ الجميع ، ونفذ لهم مائة دينار ، وقال - يعنى الملك بالدون الثالث - : توصلوا بهذه إلى بلادكم ، وكانوا رجالا ونساءً فى خمسين نسمة ... فهون على سلامة أولادى وأولاد أخى ، وحرمنا ذهاب ما ذهب من المال ، إلا ما ذهب لى من الكتب ، فإنها كانت أربعة آلاف مجلد ، من الكتب الفاخرة ، فإن ذهابها حزازة فى نفسى ما عشت[3] » .

---

(١) الاعتبار/٦ - ٢٩ .
(٢) الاعتبار/٢٨ .
(٣) الاعتبار/٣٥ .

ويبقى فى دمشق زهاء عشر سنين لم تصفُ كلُّها من الهموم والشدائد ، فقد دمر الزلزال شيزر سنة ٥٥٢هـ. وقتل من كان فيها من بنى منقذ ، فكان لهذا الحادث المولم صدى قَوىٌّ فى شعره ، وكان من أثره أن جمع أُسامة كتابه « المنازل والديار » يخلد به هذه المأساة .

وحَجَّ فى سنة ٥٥٥ هـ. = (١١٦٠م) ، وحين حاصر نور الدين محمود بن زنكى قلعة حارم فى سنة ٥٥٧هـ. كان أُسامة يشاركه فى حصارها ، وهو على عتبة السبعين من عمره . ويبدو أنه لم يلبث بعد ذلك بدمشق طويلا ؛ فقد رحل إلى حصن (كيفا)[١] ومعه أُسرته ، حيث استقبل هناك حياةً هادئةً وادعة ، أتاحت له العكوف على البحث والدرس والتأليف .

و ـ حياته العلميـة .

وإذا كانت نشأة أُسامة قد غلبت عليها الشجاعة والفروسية حتى لقد مضى الشطر الأكبر من حياته فى الجهاد ، وبرزت الناحية الحربية من شخصيته واضحة فى تاريخه ، فإن ذلك ينبغى ألا يصرفنا عن شخصيته العلمية والأدبية ، وعن شاعريته القوية ، فقد حفظ القرآن فى طفولته وتعهده والده منذ صغره بالمؤدِّبين ، وكان يحضر الشيوخ الكبار ليعلموه هو وإخوته ، وسمع الحديث من الشيخ الصالح أبى الحسن على بن سالم السِّنْبِسِىّ فى سنة ٤١٩هـ.[٢] . وكان يؤدبه الشيخ العالم أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بابن المنيرة المتوفى سنة ٥٠٣هـ[٣] . وقرأ علم النحو قريبًا من عشر سنين على أبى عبد الله الطُّلَيْطِلِىّ النحوى ، وكان فى النحو سيبويه زمانه ، ولا شك أن ذلك يقتضيه الاطلاع على غريب القرآن وتفسيره ، والتوسع فى رواية الشعر ، فنشأ راوية كاتبا ، وأديبًا شاعرا . وكذلك درس البلاغة ، وصنف فيها كتابه « البديع فى نقد الشعر » . وكان بيت بنى منقذ الأُمراء مثابة للشعراء والأُدباء ، يقصدونهم ما دحين ومسترفدين ، ويقيمون فى كنفهم مكرّمين ، وكانوا هم أيضا علماء شعراء ، فأفاد أُسامة من هذا المجتمع الأدبى

---

(١) أنظر / ص ١٦ حاشية (١) .

(٢) انظر تاريخ الاسلام للذهبى (وفيات سنة ٥٨٤ هـ) وفى تكملة اكمال الاكمال لابن الصابونى/٢٩٢ أن أسامة سمع من السنبسى وغيره ، وحدث وسمع منه الحافظ ابن عساكر ، وعبد الكريم بن محمد السمعانى ، والحسن بن هبة الله بن صصرى وغيرهم .

(٣) انظر لباب الآداب/١٠١ و ١٩٠ .

الذي نشأ فيه أدبا جما ، وأولع بحفظ الشعر وروايته . حتى روى الذهبي في تاريخ الإسلام عن السمعاني أن أسامة قال له : « إني أحفظ أكثر من عشرين ألف بيت من شعر الجاهلية » وقد بدا أثر ذلك واضحا في جزالة شعر أسامة ، وفي مصنفاته الأدبية ، ولا سيما في لباب الآداب ، والبديع في نقد الشعر ، وفي كتابه « المنازل والديار » .

تغنى أسامة بشعره طيلة حياته ، وشغله الجهاد ، وحب المغامرة ، وكثرة الرحلة عن أن يفرغ للتأليف إلى أن جاوز السبعين من عمره ، غير أن ذلك لم يكن يمنعه من القراءة والتحصيل والاطلاع في سني فروسيته ، تشهد بذلك مكتبته الضخمة التي صحبها في رحلته إلى مصر ، وكانت تربو على أربعة آلاف مجلد ، والتي سلبها الصليبيون فيما سلبوا من متاعه وأمواله حين عودة أسرته من مصر ، وسبب فقدها لأسامة حسرة عظيمة ، ويدل عليه أيضا ما ذكره النعيمي [١] من أن « دار أسامة في دمشق - مكان العزيزية - كانت معقلا للفضلاء ، ومنزلا للعلماء » .

وتنسب دائرة المعارف الإسلامية نشاط أسامة العلمي إلى السنوات العشر التي قضاها في حصن كيفا فيما بين سنتي ٥٥٩ هـ و ٥٧٠ هـ ، وما نظن هذا الرأي صوابا ، وأولى من ذلك أن يقال : إن أسامة فرغ للتأليف حين جاوز السبعين ، وظل ذلك همه أكثر من خمس وعشرين سنة عاشها بعد ذلك ، فكتابه هذا ألفه في سنة ٥٦٨هـ ، ولا نعتقد أنه أول مصنفاته ، لأنه يشير في أثنائه إلى كتب أخرى له ، وفي آخر كتابه لباب الآداب يقول : « .. ولولا أن النفس إذا غُولِبَتْ غَلَبَتْ ، وإذا زجرت لجت وأبَتْ ، لكان اشتغال من بلغ من السنين إحدى وتسعين بأعمال البرّ والثواب أجدى عليه من تأليف كتاب [٢] » وكان فراغه منه سنة تسع وسبعين وخمسمائة [٣] وما نظن أنه آخر كتبه .

ز - مؤلفاته .

لقد كانت ثمرة هذه الحياة العلمية أكثر من عشرين كتابا ، ضاع معظمها ، وطبع القليل منها ، ومازال بعضها مخطوطا .

---

(١) الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي ١/ ٣٨٤ بتحقيق جعفر الحسني (ط دمشق ١٩٤٨)
(٢) لباب الآداب/٤٦٧ .
(٣) لباب الآداب/٤٦٨ .

وقد ذكر حاجى خليفة بعضها ، ووردت أسماء بعضها فى الكتب الأخرى التى ترجمت لحياة أسامة ، وأشار أسامة إلى بعضها فى مؤلفاته الأخرى ، وهذه هى :

١) المنازل والديار وهو هذا الكتاب الذى نقدمه اليوم للقراء ، وقد صنفه سنة ثمان وستين وخمسمائة .

٢) لباب الآداب الذى جمع فيه الكثير من الأقوال ، والأخبار ، والأشعار ، وقسمه على سبعة أبواب هى : الوصايا ، والسياسة ، والكرم ، والشجاعة ، والآداب ، والبلاغة ، والحكمة ، وقد أفاض فى بابى الآداب والبلاغة ، فجعلهما فصولا عدة ، وقد نشرته مكتبة سركيس بتحقيق العلامة المرحوم الشيخ أحمد شاكر (ط الرحمانية بمصر سنة ١٩٣٥م) .

٣) الاعتبار ، وقد سبق التنويه به ، وله طبعتان عربيتان :

حققت الأولى ديرنبرغ (ط ليدن سنة ١٨٨٤ – ١٨٨٦) .

وحققت الثانية فيليب حتى (ط جامعة برنستون سنة ١٩٣٠م) .

وقد حظى هذا الكتاب باهتمام المستشرقين ، فترجم إلى الفرنسية والإنجليزية والألمانية والروسية .

٤) البديع فى نقد الشعر ، وهو كتاب جمع فيه ما تفرق من ألوان البديع فى كتب العلماء المتقدمين ، وزاد فيها حتى بلغت خمسة وتسعين نوعاً ، وقد طبع بتحقيق أحمد أحمد بدوى وزميله (ط الحلبى بالقاهرة سنة ١٩٦٠) .

٥) كتاب العصا[1] الذى تحرف على الشيخ أحمد شاكر تبعا لياقوت فى معجم الأدباء فسماه خطا (كتاب القضاء) .

---

(١) ذكره الأستاذ طاهر النعسانى فى مجلة المجمع العلمى بدمشق (ج ١٠/٣٠٥ – ٣١٦) وأورد نماذج منه نثرا وشعرا ، ومنه قول أسامة فى كتاب بعث به الى ولده مرهف بمصر يطلب منه عصا من آبنوس :

أريدُ عَصاً من آبَنُوس تُقِلُّنِى ... فإن الثمانين استعادَتْ قُوَى رِجْلِى

ولو بعصا موسى اتَّقَيْتُ لآدَها ... – على ما بِها من قُوّة – حَمْلُها ثِقْلى

ولكن تمنّيْنا الرجاء بباطل ... وكم قَدْر ما تُرْجَى المنايا ، وكم تُمْلِى

إذا بلغ المرءُ الثمانين فالرّدَى ... يناجِيه بالترحال من جانب الرَّحلِ

٦) مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ومخطوطته محفوظة بدار الكتب المصرية ، وفى مقدمته يقول أسامة : « إننى وقفت فى شوال سنة سبع وستين وخمسمائة على كتاب مناقب أمير المؤمنين أبى حفص عمر تأليف الإمام العالم الزاهد .. أبى الفرج عبد الرحمن ... ابن الجَوْزىّ ... فرأيت - وبالله التوفيق - أن أجردها من الأسانيد ... وقد كنت أوردت فى كتابى المترجم « بالتاريخ البدرى » المشتمل على ذكر فضائل أهل بدر من مناقبه وفضائله وفتوحاته وأحكامه ، ما فيه مقنع وكفاية ، ولكنّ الزيادةَ من الخير خير [٢] » .

٧) مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، ومخطوطته محفوظة بدار الكتب المصرية ، وهو اختصار كتاب مناقب عمر بن عبد العزيز من تأليف ابن الجوزى أيضا . وقال أسامة فى مقدمته : « .. جردته من الأسانيد ، وحذفت ما فيه من التكرار .... وكتبته بخطى ، وكنت قد أوردت من مناقبه وورعه وحسن سيرته وزهده فى كتابى المترجم بكتاب « نصيحة الرعاة » ماجاء مفرقا فى أثناء أبواب الكتاب » .

٨) التاريخ البدرى المشتمل على فضائل أهل بدر ، كذا أشار إليه أسامة فى مقدمة كتابه « مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » وذكره الذهبى أيضا ، وقد تحرف على فيليب حتى فسماه « التاريخ البلدى » .

٩) نصيحة الرعاة أشار إليه فى مقدمة كتابه « مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز » .

١٠) تاريخ القلاع والحصون - ذكره صاحب كشف الظنون .

١١) أزهار الأنهار - ذكره صاحب كشف الظنون ، ونقله عنه الأستاذ فيليب حتى .

١٢) التأسّى والتسلى - أشار إليه أسامة فى لباب الآداب (ص٢٩٤و٤١٠) .

١٣) أخبار النساء - ذكره أسامة فى الاعتبار (١٦٨) وفى المنازل والديار (ص ٩٤ ا) .

١٤) الشيب والشباب - أشار إليه فى لباب الآداب (٣٧٧) وذكر ياقوت فى معجم الأدباء أنه ألفه لأبيه .

---

(١) يقول الأستاذ طاهر النعسانى فى المصدر السابق « وقد عثرت على هذا الكتاب ونسخته ، وبعثت بالأصل الى العلامة الأستاذ تيمور » ، وهذا يعنى أن للكتاب نسخة أخرى بالمكتبة التيمورية .

١٥) النوم والأحلام ـ أشار إليه في الاعتبار ص ١٨٦ .

١٦) (أخبار البلدان) فى مدة عمره ، ذكره الذهبي .

١٧) التجائر المربحة والمساعى المنجحة ـ ذكره صاحب كشف الظنون ، وأورده أيضا فيليب حتى نقلا عن ديرنبورغ .

١٨) ذيل يتيمة الدهر ، ذكره ياقوت ، وسماه الذهبي ذيل خريدة القصر[١] للباخرزي .

١٩) كتاب فى أخبار أهله ذكره ياقوت وقال : إنه رآه .

٢٠) كتاب تاريخ أيامه ، ذكره ياقوت أيضا ، ورجح المرحوم الشيخ أحمد شاكر أن يكون هو كتاب الاعتبار .

٢١) ديوان شعر أسامة بن منقذ ، ذكره ابن خلكان ، وذكر أنه فى جزأين ، وأنه رآه بخط أسامة ونقل منه ، وقد نشر بتحقيق الدكتور أحمد أحمد بدوي والدكتور حامد عبد المجيد (ط القاهرة سنة ١٩٥٢) .

٢٢) كتاب « فضائل الخلفاء الراشدين » ذكره أسامة فى لباب الآداب ص ١٧٣ .

ح ـ ثناء العلماء عليه :

ينقل العماد الأصفهانى فى ترجمته لأسامة : « هذا مؤيد الدولة من الأمراء الفضلاء ، والكرماء الكبراء ، والسادة القادة العظماء ، وقد متعه الله بالعمر وطول البقاء ، وهو معدود من شجعان الشام ، وفرسان الإسلام » ويقول أيضا : « وأسامة كاسمه ، فى قوة نثره ونظمه .. حلو المجالسة ، حلى المساجلة .. معتدل التصاريف ، مطبوع التصانيف[٢] ».

ويقول ياقوت[٣] : « وفى بنى منقذ جماعة أمراء شعراء ، لكن أسامة أشعرهم وأشهرهم » .

وقال الحافظ ابن عساكر : « اجتمعت بأسامة فى دمشق وأنشدنى قصائد من شعره ، وقال لى أبو عبد الله بن الحسن بن الملحى : إن الأمير مؤيد الدولة أسامة شاعر أهل الدهر ، مالك عنان النظم والنثر ، متصرف في معانيه .لاحق بطبقة أبيه ... فقصائده الطوال لايفرق بينها

---

(١) معروف أن خريدة القصر للعماد الأصفهانى المتوفى سنة ٥٩٦ هـ بعد وفاة أسامة باثنتى عشرة سنة ، وكتاب الباخرزى اسمه (دمية القصر) وهو ذيل على يتيمة الدهر للثعالبى .

(٢) خريدة القصر قسم شعراء الشام ج ١/٤٩٨ .

(٣) معجم الأدباء ٥/١٩١ .

وبين شعر ابن الوليد ، ولا ينكر على منشدها نسبتها إلى لبيد ، وهى على طرف لسانه ، بحسن بيانه ، غير محتفل بطولها ، ولا يتعثر لفظه العالى بشىء من فضولها ، وأما المقطعات فأحلى من الشهد ، وألذ من النوم بعد طول السهد ، فى كل معنى غريب وشرح عجيب » .

ط ـ أسامة فى شيخوخته :

حين استعاد صلاح الدين الأيوبى دمشق من الصليبيين فى سنة ٥٧٠ هـ. كان الأمير عضد الدين أبو الفوارس مرهف بن أسامة من خاصة صلاح الدين المقربين ، وكان صلاح الدين شديد الإعجاب بأسامة «لم يزل مشغوفا بذكره ، مشتهرا بإشاعة نظمه ونثره[1]» وكان «يفضّل ديوان شعره على سائر الدواوين[2]» فكتب صلاح الدين إلى أسامة يستدعيه من حصن «كَيفا» إلى دمشق ، فشخص إليه أسامة ، وهو يومئذ شيخ قد جاوز الثمانين ، فأنزله دارًا بدمشق ، وأكرم مقامه ، وأجرى عليه نفقة ، وأعاد إليه إقطاعا كان له فيها قبل رحيله عنها إلى حصن كيفا ، فطاب له العيش ، ونعم فى شيخوخته بشئ من الرفاهية ، فأخذ يلقى محاضراته فى البديع ، ويجلس للتدريس فى المدرسة الحنفية ، غير أن ذلك ـ فيما يبدو ـ لم يدم طويلا ، فقد حول صلاح الدين عنه وجهه ، ووقعت بينهما جفوة لا ندرى ما سببها[3] ، ولا كم طال أمدها ، ولم تكن سنه تحتمل رحلة جديدة ، فلزم بيته وفى نفسه ما فيها من أسى وحسرة نحسهما فى قوله : «... وكنت أظن أن الزمان لا يبلى جديده ، ولا ينى شديده ، وأنى إذا عدت إلى الشام وجدت أيامى بها كعهدى ، ما غيرها الزمان بعدى ، فلما كذبتنى وعود المطامع ، وكان هذا الظن كالسراب اللامع . اللهم غفرا هذه جملة اعتراضية عرضت ، ونفثة همٍّ أقضّت ثم انقضت » .

وما أكثر الهموم فى حياة أسامة ! حتى لقد صدق قوله :

وإذا عَدَدْتُ سِنِيَّ ثم نَقَصْتُها زمنَ الهُموم فتلك ساعةُ مولدِى[4]

---

(١) المصدر السابق ١٩٣/٥ .

(٢) الدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى ١/ ٣٨٤ .

(٣) يرجح الأستاذ فيليب حتى فى مقدمة الاعتبار أن هذه الجفوة ربما كانت بسبب ميل من أسامة للتشيع لحظة صلاح الدين وهو نصير السنة ، ومحيى دولة أمير المؤمنين ، وسنة الخلفاء الراشدين وانظر الاعتبار/١٦٤ .

(٤) لباب الآداب (٢٧ مقدمة) .

ولم يلبث أُسامة بعد ذلك أن أدركه ما يدرك المُعَمَّرين حين يسلمهم الكِبَر إلى الضعف ، فيَمَلُّون العيش ، ويسأَمون طول البقاء ، فيكثرون الشكوى . وفى ذلك يقول أُسامة : « ... ولم أَدر أن الكبر عام ، يعدى كل من أَغفله الحِمام ، فلما تَوَقَّلْتُ[1] ذروة التسعين ، وأَبلانى مر الأَيام والسنين صِرْتُ كجواد العَلاَّف ، لا الجوادِ المِتلاف ، ولصقت من الضعف بالأَرض ، ودخل من الكِبَر بعضى فى بعض ، حتى أَنكرت نفسى ، وتحسّرت على أَمسِى ، وقلت فى وصف حالى :

لمّا بَلَغْتُ من الحياة إلى مَدَى ... قد كنت أَهواه تمنَّيْتُ الرّدَى
لم يُبقِ طولُ العمرِ منى مُنَّةً ... أَلْقَى بها صرفَ الزمانِ إذا اعتدَى
ضَعُفَت قُوايَ وخانَنِى الثِّقتانِ من ... بَصرِى وسَمْعِى حين شارَفْتُ المَدَى
فإذا نهضت حسِبْتُ أَنَىَ حاملٌ ... جَبَلا ، وأَمشى إن مَشَيْتُ مقيَّدا
وأَدِبُّ فى كنى العَصَا وعهِدْتُها ... فى الحرب تحملُ أَسْمَرًا ومهَنَّدا
وأَبيتُ فى لين المِهاد مُسَهَّدًا ... قلِقًا كأَنَّنِىَ افترَشْتُ الجَلْمَدا
والمرءُ يُنسَىَ فى الحياةِ وبينما ... بلغ الكمالَ وتَمّ عادَ كما بَدَا[2]

ى ـ وفاته :

عاش أُسامة فى دمشق بقيّة أَيامه إلى أَن وافته منيته فى ليلة الثلاثاء ٢٣ من رمضان سنة ٥٨٤ هـ. (نوفمبر سنة ١١٨٨م) وقد بلغ من العمر ستا وتسعين سنة قمرية حفلت بالنضال وجلائل الأَعمال ، ودفن من الغد فى سفح جبل قاسيون من شرقيّه ، قال ابنُ خَلِّكان : «وقد دخلتُ تربتَه وهى على جانب نهر يزيد الشمالى ، وقرأْت عنده شيئا من القرآن ، وترحّمْتُ عليه » وقد دَرَس قبره فيما درس من الآثار فى ذلك الجانب من الجبل ، وقامت على أَنقاضه الدور الحديثة .

وهكذا انطوت صفحة مشرقة من صفحات البطولة العربية التى جمعت إلى صدق الجهاد سعة العلم ، وغزارة المعرفة ، وعمق الفكر . ؟

مصطفى حجازى

القاهرة فى { ٣ / ١١ / ١٣٨٧ هـ
الموافق ٢ / ٢ / ١٩٦٨ م

---

(١) التوقل : الإسراع فى الصعود .

(٢) «يشير إلى معنى الآية الكريمة : اللهُ الذى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثم جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثم جَعَلَ من بَعْدِ قُوَّة ضَعْفاً وشَيبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ وهو العَلِيمُ القَدِيرُ » (الروم / ٥٤)

ترجمة لمقدمة المصورة الروسية *

الطبعة الحالية تعرض صورة طبق الأصل للمخطوطة الفريدة المحفوظة بقسم المخطوطات فى معهد شعوب آسيا التابع لأكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفيتى بليننجراد ، تحت رقم (C٣٥) .

وهى تحتوى على مؤلف لأسامة بن منقذ (١٠٩٥-١١٨٨م) هو «كتاب المنازل والديار» .

والمخطوطة بخط المؤلف أسامة ، وكان الفراغ منها بحصن كيفا (غير بعيد من مدينة ديار بكر ، المجاورة الآن لتركيا) فى جمادى الأولى عام ٥٦٨ هـ (= ديسمبر عام ١١٧٢م) حينما كان فى السابعة والسبعين من العمر .

وقد نال مؤلف هذا الكتاب فى عصرنا هذا شهرة بفضل تأليفه لكتاب الاعتبار الذى ترجم إلى عدد من اللغات الأوربية ، ومن بينها اللغة الروسية [١] .

وأما الدراسة العلمية للنسخة المذكورة فإنها مرتبطة باسم عضو الأكاديمية «كراتشكوفيسكى» فقد أعطى فى سنة ١٩٢٥ وصفا مفصلا للمخطوطة ، وأبرز مكانتها كأثر قديم بين مجموعة المؤلفات الأخرى فى الأدب العربى فى العصور الوسطى [٢] .

وقصة مصير المخطوطة ، وتاريخ اكتشافها تحت عنوان «معاصر أول حملة صليبية» تشكل واحدا من أروع الفصول فى الكتاب المعروف لكراتشكوفيسكى «مع المخطوطات العربية [٣]»

---

* هذه المقدمه كتبها باللغة الروسية الأستاذ أنس خالدوف ، وقد ترجمها الى العربية صديقنا الفاضل الأستاذ رضوان ابراهيم فى أغسطس سنة ١٩٦٥ م وبعثت بها الى الأستاذ خالدوف فأقرها ، وأثنى عليها ، وأبدى اعجابه بدقتها .

(١) أسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار ترجمه عن العربية م. أ. سال محرر بمعاونة مقالات وتعليقات أغناطيوس كراتشكوفسكى (بطرجراد- موسكو ١٩٢٢ الطبعة الثانية) مع الاستعانة بمقالات آ. بلياييف عن « عصر أسامة (موسكو ١٩٥٨) وفى نهاية أوراق الطبعتين نشرة بيبليوجرافية بالأعمال المؤلفة عن أسامة والترجمات الأوربية لكتبه .

(٢) اغناطيوس كراتشكوفسكى (مؤلف مجهول بخط المؤلف السورى الأمير أسامة « رسائل الزملاء المستشرقين » الموضوع ١، ١٩٢٥، الصفحات ١ - ١٨) واغناطيوس كراتشكوفسكى مقالات مختارة (الموضوع ١١ موسكو - لينينجراد ١٩٥٦ ص ٢٦٦ - ٢٨٣) .

(٣) اغناطيوس كراتشكوفيسكى بين المخطوطات العربية (موسكو - لينينجراد ١٩٤٥) الصفحات ٤٦ - ٥٠ ، وفى الترجمة العربية (طدار التقدم بموسكو ١٩٦٣ ص ١٦٣/١٧٣) واغناطيوس كراتشكوفسكى مقالات مختارة موضوع/١ (مونسكو/ليننجراد ١٩٥٥) ص ٧١ - ٨٤)

و «كتاب المنازل والديار» يقدم ديوان شعر، أو على الأصح، مجموعة من الشواهد الشعرية مع التنويه بأسماء مؤلفيها.

كما يعلن المؤلف فى مقدمته سبب جمعها، مستخدما مذكراته عن الأحداث التى تركت فى نفسه أثرا لا ينسى مدى الحياة، ففى أغسطس عام ١١٥٧م دمر الزلزال الرهيب - إلى جانب المدن الأخرى فى شمالى سوريا - المدينة الأم لأسامة، وهى «شيزر» وكان كل أفراد أسرته على وجه التقريب محتشدين فى احتفال عائلى أقيم فى القصر، فهلكوا تحت الأنقاض، ومنذ زوال عهدهم اعتزل الأمير بعيداً عن الذكريات المرهقة يبحث عن السلوى فى الأشعار العربية.

وقد وجد فى أشعار الشعراء القدامى والمعاصرين له أصداء لمشاعره وأفكاره المضطربة تتردد فيها أنغام الحسرة على الأقارب والأصهار، والحنين إلى الوطن المهجور، وذكريات الأيام السعيدة الذاهبة إلى غير رجعة، وفراق الأحباب ورثاء الموتى، وحتمية القضاء، وضياع الجهود البشرية فى بهرج الحياة الأرضية.

وهذه الأنغام تلتقى بصورة أساسية فى القسم الافتتاحى الغنائى لمعظم الأشعار العربية، وهو المسمى عادة بالنسيب أو «البكاء على الأطلال والمنازل».

أما عن تكوين الكتاب فالمؤلف يعتمد على السمة الظاهرية البحتة، وقد رتبه فى ١٦ قسما، مقسمة أحيانا إلى أصغر، وأسامة يرتب المقطوعات الشعرية بفطنة مع تلك الكلمات التى يستعملها الشعراء عند توجيه الخطاب إلى المكان المهجور أو المخرب، حيث كان يعيش ذووه ...

فهذا المسكن المأهول والمنزل واستراحة الربيع، وآثار الترحال، والمدن، والبيوت ... مع جميع المترادفات المختلفة، والناشئة كذلك عن حياة الرحلة العربية[1].

وهو يقدم مادة حقيقية غنية مجتمعة فى هذه الباقة بين يدى الباحث المعاصر فى شكل منظم، ومن الممكن أن يقدم معاونة قيمة فى الدراسة التاريخية للشعر العربى، وبخاصة التطور التاريخى لافتتاحيات القصائد العربية - «النسيب». وهذا فى رأى اغناطيوس كراتشكوفيسكى هو المغزى الرئيسى للكتاب[2].

---

(١) اغناطيوس كراتشكوفسكى، مقالات مختارة، الموضوع ١١، صفحة ٢٧٤ .

(٢) المصدر السابق صفحه ٢٨٣ .

و «كتاب المنازل والديار» يعطى فرصة لعرض الصورة الروحية الدقيقة والذوق الأدبى للمؤلف، وفيه معلومات عن ترجمة حياة المؤلف، متمِّمة ومؤكدة لما هو معروف من «كتاب الاعتبار».

وفى النهاية فإن هذا الكتاب يحوى قدرا من الأشعار الهامة للشعراء السوريين والمصريين فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر [بعد الميلاد]، وهى تقدم مساعدة هامة لنقاد النصوص عند نشر الآثار المتقارنة، وفى بعض الأحداث الهامة تلعب دور المصدر الأول.

أنس خالدوف

كتاب المنازل والديار
لمجد الدولة الأمير أسامة بن مرشد
ابن علي بن مقلد الكناني

صفحة العنوان من الكتاب وانظر ص ٢٥

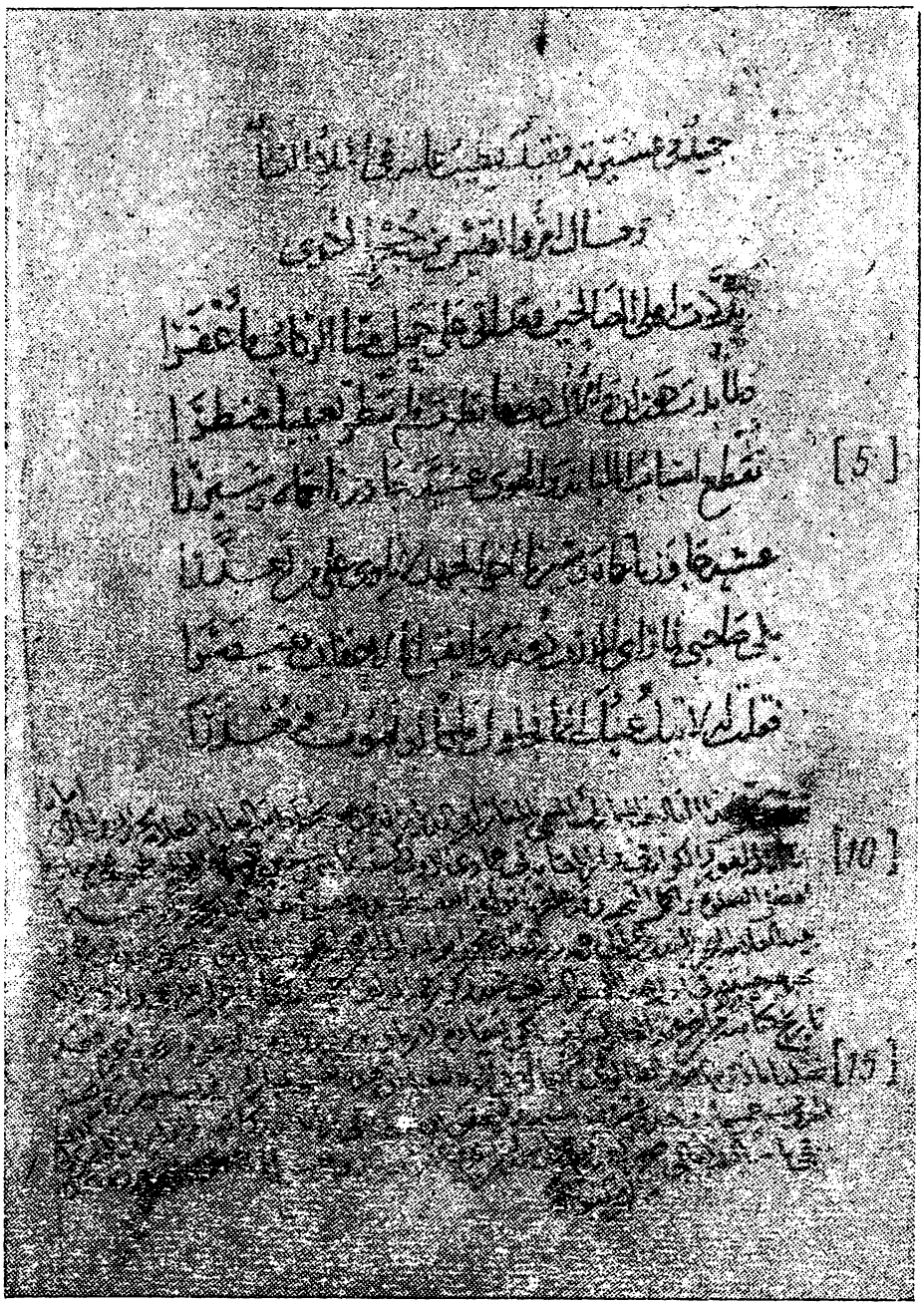

الصفحة الأخيرة من الكتاب وعليها تعليق كتبه محمد انور بن الموقع فى سنة ١٠٨٩ هـ وانظر/١٥ حاشية رقم (١)

فصل

في ذكر البيت

في ذكر البيت

قال الله تبارك وتعالى ان اول بيت وضع للناس للذي
ببكة مباركا وهدى للعالمين ه قال مجاهد رحمه الله تفاخر
المسلمون واليهود فقالت اليهود بيت المقدس افضل وقال المسلمون
بل الكعبة افضل فانزل الله تعالى هذه الآية ه ولا اختلاف بين
اهل السير انه اول بيت وضع للناس واختلفوا انه كان اول
بيت وضع لغيرها على قولين احدهما انه قد كان قبله بيوت كثيرة
وهو قول علي بن ابي طالب رضوان الله عليه والحسن رضي الله عنه ه
والثاني انه لم يوضع قبله بيت وهو قول مجاهد وقتادة ه
وروى عن ابي ذر رضي الله عنه انه قال سالت رسول الله صلى الله عليه وسلم
اي بيت وضع في الارض اول قال المسجد الحرام قلت ثم اي
بيت قال بيت المقدس قلت كم كان بينهما قال اربعون سنة ه

هذه الصفحة سقطت من مصورة الكتاب التي نشرها معهد الشعوب الآسيوية بموسكو ، وانظر ص (٢٧ و ٢٨) .